كراسات الفكر المعاصر

يحيى الطاهر عبدالله

حكايات للأمير

قصص



٤

دار الفكر المعاصر

يحيى الطاهر عبدالله

حكايات للأمير

قصص

دار الفكر المعاصر
للنشر والتوزيع
٤ ميدان الجمهورية القاهرة

الكراسة الرابعة ـ أكتوبر ١٩٧٨

المحرر : عبد السلام رضوان

تصميم الغلاف : اللبـاد

رسـم الغلاف : نبيل تاج

من الزرقة الداكنة حكايات

الحمد لله الذى لـم يسلبنى كـل نعمـة فمنحنـى نعمـة الخيـــال ..

والصلاة على النبى الذى أجار غزالة البر لمـــا اســتجارت به من شر صاحبها اللئيم ..

والثنـــاء الثنـــاء عليك أميـرى ..

(أقـــول)

ان الكونت الايطالى شـاذ الطبع ، دخـل مدينة الشتـــاء بالصيف ، فمـا ان حدقت فيـه شمس صيف المدينـــة ـ هو الغريب ـ بعين كبيرة ورمته بألف رمش من نور وألف رمش من نار ـ حتى سـارع بخلع كل ثيابه وابقى على البنطلـون القصير ولولا الملامـة لخلعه ، ودس رأســـه الاصلـع تحت قبعـة زرقاء ، وأشـــار بيـده الممسكـة بالغليـون ـ فهرول نحوه الجندى الاسكتلندى بخوذته ذات الريش الازرق وثيابه

الزرقاء الزاهية وسيفه المتدلى من جنبه ومـد يديه بزجاجتين من الويسكى ، شرب الكونت المحب للشراب زجاجة وهـو واقف وزجاجة وهو قاعـد على درج المطـار ، وفرك راحتيـه فتحركت باتجاهه عربة زرقـاء مقفلة نوافذها تغطيها الستائر الزرقاء وهبط منهـا رجل ضخـم حمل الكونت وأقعـده على الكرسى الخلفى ، واعتلى الجندى الاسكتلندى حصانه وتقدم العـربة شاهرا سيفه ٠

(أقــول)

من شرفة الفنـدق المطل على النيل أطل الكونت الثمـل وراى النيل رجالا بثياب الموج الداكنـة الزرقة وقـد تناثرت حواليهم النجوم الزرقاء ـ فهاجت روحـه واشتاقت للفعل : رسـم على الورق البيوت السبعة واحاطها بسور من حـديد مدبب ينفذ فى اللحم وجعل بوابة السور فى حماية كـلاب تنهش اللحم ، كل بيت من البيوت السبعة بحديقـة وحـوض ماء به سمك ملون ونافورة ، وداخل السور كان اسطبل خيل، البيت الأول من طابق واحـد والبيت الثانى من طـابقين ـ وهكذا تدرج (١ = ١ ، ٢ = ٢ ، ٧ = ٧) ، ودهن البيوت بلون ازرق يقتم (من ١ الى ٧ أو من ٧ الى ١) ، ورفـع الكونت منظاره واختار من الرجال ستة (البنـاء ماهـر ، والحـداد قـوى ، والحوذى شـاب ، وفالح الارض فحـل ، وصانع الاثاث بيـدين مدربتين رائعتين ، والنقاش مرح) ٠

(أقــول)

اخيرا تكلم الكونت بالايطالية ، وهو راقـد على بطنـه فـوق مرتبة من المطـاط محشوة بهواء رطب من تحت شمسية يتدلى منهـا ورق الزينة الازرق : برافو ٠٠ لقـد وثقتم بى وقـد وهبتكم البيـوت ٠٠٠ وها انتـم أمامى سـادة بحلل سوداء وأحذية تلمع تتمخطون فى مناديل ٠٠ كل شىء هنـا داخل السور صار لكم ٠٠ واليـوم للخمر والمتعـة الصافية٠٠ ومن غـد ساعلمكم لعبـة الورق فخـلال شهر سنستقبل هنا اضيافنا وهم من علية القـوم ٠٠ سيكون كل منكم قد أحسن الامسـاك بالشوكة والسكين وعرف كيف ينزع اللحم مـن العظم ٠٠ سابذر فى نفوسكم المتباعـدة روح الجماعة التى ترفض ان تغلب ـ تلك التـى تخطط للنصر الـذى سـيجعل منكم الاغنياء السادة بحق لهذا العالم الذى لا يحترم الا السيد الغنى ٠٠ لقـد اكتسبت أنا تلك الروح بعـد جهاد شـاق وحياة دون كادت تحشرنى فى زمرة الموتى عريانا جائعا ٠

ورفع الكونت كوبه ـ فرفع الاسافل اكوابهم وقرعوهـا كانهم السـادة منـذ زمـان بعيـد ٠

(أقــول)

مـر الشهر وتلاه شهر وشهر ، وهاهم القـوم يستقبلون أضيافهم من ثراة العـالم ـ الطامعين فى كسب مستحيل ـ برفع القبعات ، يرطنون مع بعضهم بالطليانية ويكلمون أبناء

جلدتهم بخلطـة من كلام العرب وكلام الطليان ، يلعبون الورق بخفـة الحواة ويحسنون الغمز واللمز الذى نهايته الظفـــر بمالخصومهم ، ويشربون من جيـد الخمر البئر والنهر والبحر فلا تدور لهم أدمغـة ، ويأكلون مـن اللحـم المشـوى والمقلى والمسلوق التلال والجبـال والسهول والوديان ـ فلا يصيبهم مغص أو وجع ٠

(أقـــول)

بعـد الثنـــاء عليك أميرى والصلاة على النبى ـ لله الحمد على هذه الخاتمـة الحسنة :

فها هى ذى العربة قادمة من البعيد بستائر زرقاء مسدلـة ـ وقد داست بعجلاتها فـوق بشر وشجر وحيوان وطير داجن وهدمت بيـوت النمل ووقفت أمام البوابة وهبط منها الرجال الاقوياء الصالحون لكل شئ ٠ رفع الكونت قبعته الزرقـاء بيـد ، وأشـار بيـد ممسكة بالغليون للكلاب فكفت عـــن النباح ، وبأسى قال الكونت للرجال : كيف جـاء الموعد هكذا سريعـا ،ولم يسمع جوابا ، فركب العربـة ٠ وركب بعـده الرجال ٠ وركضت الخيل ٠ وتصاعد الغبار فغطى كل شئ٠٠

حكاية صيف

بعد رحيل الكونت (ذلك الذى حكيت لك حكايته أميرى) ثار الغبـار الكثير فى أعقـاب العربـة فحجبها عن أعيـــن البشر ٠

هنـــا ـ اقـول انا : ان ثمـة صيفـا اقبـل ، لا ككـل صيف فهذا الحر فى الجوف لا يلطفه ماء ، ورطوبة الجــو تخنق الانفاس ، والشمس الكبيـرة القريبـــة مـن الارض لا غاية لهـا الا ان يشب الحريق بعالمنـــا فى التو واللحظة ٠

(والله واحـد ياأميـرى وللشمس بوجهين) ٠

قالت الأم : أبوك رحمة الله عليه كان طيبا ، يمشى فـى حاله ، ويطلب من الحوائط ان تداريـه ،والكونت يا ولـدى اشترى الأرض من جـدك بماله ٠

رد البكرى : جدى كان يسكر وكان يقامر ـ وتلك شـيم الرجال ، لكن بأى حق يرث القريـن الارض ، لا هو كونت

ولا ابن كونت ، ولا من سلالة كونت ، كذا لا انا ولا انت نعرف طليانى حتى نحكم ان كان كلامه طليانى أم غير طليانى ؟ كما ان اسـمه القـرين !! ، طظ ، سأمنعـه بعصاى هـذه مـن زراعـة الأرض ·

صرخت الام ، فتجمع الجيران ، ودار جدال ، لكن البكرى شق الجمع وبيـده عصاه ـ والارض مقصده ـ ومن خلفـه سارت أمـه تلطم ومعهـا جمع من النسوة المولولات ·

صرخ البكرى فى القرين : أنزل من فوق البغلة وكلمنى ·

قال القرين لنفسه : هذا كلام قبيح ·· وسروالى ابتل ، وهذه الرائحة الكريهة التى اشمها بنت خوفى (وهمز القرين بغلته فركضت) ·

(وآه يا أميرى الليل ايضا برأسين ، والله فى ملكه لا شريك لـه) ·

قال القرين للحداد : اصنع لى حجرة جدرانها من الصاج المتين ، بسقف من الصاج المتين ، ولها باب من الصاج المتين يغلق من الداخل بلسان متين ، واجعل للباب عينا مسحورة أرى منها الطارق ولا يرانى ، ولك منى يا أيها الحداد عشرة جنيهات ورقية وعشرة جنيهات ورقية وعشرة جنيهات ورقيـة ·

وقال القرين للقتلة الثلاثة ـ ورسم لهم البيت والشجرة

والمنحنى والتل والترعة : أريـده حيا ، مربوطا بالحبـال ، سابصق على وجهه الكلب ابن الكلب ـ انا القرين ، وسأدفع لكمعشرة جنيهـات ورقيـة وعشرة جنيهـات ورقيـة وعشرة جنيهات ورقية وفوقها عشرة جنيهات ورقية ·

وقال القرين لنفسه ـ بعد أن فارقه القتلة : قلت لهم أنه كلب وابن كلب ونسيت ان أقول لهم أنه ثعلب وأبن ثعلب ، قد يضللهم ويغطس فى الترعة أو يلبد فى جحر وينتظر الحين المناسب ليثب على هنا ، ربما فى ثياب خادم الذى يحمل لى قلة الماء وصينية الطعام ···

حكاية عبد الحليم افندى
وما جرى له مع المراءة الخرقاء

انا لم اشهد تلك الايام لكننى حضرت ليلة احياها الثلاثة ، ثلاثة من افضل الرواة ـ يا اميرى ، خطفهم الموت الظالم فى عام واحد ، عليهم رحمة الله ، لقد كانت خسارتنا فيهم كبيرة ...

* اكتع يدق على عود ، فيبكى وتر ويضحك وتر ..

* واخرس يرسم الدنيا بالصرخة والاشارة : دنيا ببحر وشجر وطير وناس ...

* اما الاهتم فكان ضارب دف لا نظير له ..

بعدما اكلوا الاكلة الدسمة وشربوا وشموا ، صرخ الاخرس ، فدق الاكتع على عوده وضرب الاهتم ـ على دفه ـ ذلك الضرب السريع المسمى بالقادوس ، وقالوا :

فى ليلة ـ كانها الليلة ، ورب الكون شاهد على صــــدق ما نحكى نـزل الانجليز من القوارب ، ونصبوا الخيـــام ـ هنــاك فى فضاء الأرض الرملــيــة ٠٠ وظلوا على حالهم قرابة الشهر بينمــا النهــر يفصل بينهم وبين بيوت نـاس الشرق ـ حتى جـاء ذلك اليـــوم :

تفل ولد من اولاد نـاس الشرق تفلة ، وراهن الولد انداده ـ قال : ما قولكم لو عبرت النهر من الشرق الى الغرب وعـدت قبل ان تجف تفلتى ؟ ٠

رد الأولاد : نسميك البطل ٠٠ ونحكى حكايتك لكل الناس
قال الولد : لا ٠٠ قولوا عبد الحليم افنــدى راح وعبد الحليم افنــدى جــاء ٠٠لقبونى بالأفنــدى ٠٠ ونـادونى يا افندى ٠٠

ضحك الأولاد وقالوا : أمرك يا أفندى ٠٠ تمام يا افندينا٠

خلع الولد خرقته ، ورمى فى الماء بدنه ، وعــارك الموجـة حتى بلغ بر الغرب ببطن منفوخة ـ فكلم نفســه : هنا فوق الرمل الناعم اقف وابول وافرغ القربة ٠

وسمع الانجليزى يناديه بلسان اعوج : لا تخف انا كبير مطبخ الانجليز ، وناداه الانجليزى بلســان حلـو ملـوى : سبحان من صــور بدنك ورســم وجهك ، وناداه الانجليزى بلسان احمر : اسمح لى بلمس بدنك وتقبيل خدك ٠

خلاصة القــول ـ يا أخوان ، ان الكلام الحلو الملون فرش الطريق الى خيــام الانجليز بالورد والحناء ٠

واسمعوا يا سامعين : قال الانجليزى لعبد الحليم : ادخل الحمام واستحم ـ وناوله صابونة معطـرة ٠ دخــل الولــد الحمام وحك جلده ، وطــرد القملة والبرغوثة ، وخرج الولـد من الحمام ببنطلون ازرق وجاكت أبيض وبشبشب فى القدم، وقعــد على كرسى ٠

وجــاء مزين الانجليز وقص شعر رأس عبد الحليم ودهنه بدهان طيب الرائحــة ٠

وكمــا ضحك الأولاد من عبد الحليم لـمـا قال لهم : نادونى يا افنــدى ، ضحكت الاقدار من الأولاد ، وها هو عبد الحليم أمــام عيون الكبار والصغار افندى بحق ، يلــوح بيــديه ، بينما رسول الانجليز يلوح بمنديل أبيض ، أما القارب فكان بموتور يهدر : فو ٠٠ فو ٠

ذهب عبد الحليم أفنــدى للمنادى ، فدار المنادى الاعمــى فى الدروب ٠ ومن القارب كلــم الانجليزى رسول الانجليــز الناس بلســان اعوج وطلب منهم بنــاء ســور من الحجر ، واعطاهم ريالات الفضة ، واشترى مــن أم الأولاد البيضــة والدجاجة ، كمــا باعت لــه البنت الأرنب والحمامة

صلوا على طـه النبى :

فى نهارين أقام الرجال السور وشيدوا البيت اللطيف الذى سكنه كبير الانجليز ، وبنوا المطبخ والورشة والمخزن ، وأصلحوا الطرق ورصفوها ـ لتهبط فوقها طائرات بمراوح وطائرات باجنحة .

وفى شهرين ـ ويفضل كبير مطبخ الانجليز ـ تعلم عبد الحليم كيف يطبخ طبيخ الانجليز وكيف يصنع الفطيرة الحلوة والفطيرة المالحة ، وعرف رطانة الانجليز فصار يرطن كالانجليز .

وقال المعلم لتلميذه : اذا جاء الصيف البس له الحلة الفاتحة من قماش الشاركسكين .. وامسك بيدك منشة ـ ففى الصيف يكثر الذباب يا عبد الحليم .

وقال الخواجا لابن البلاد :

وفى الشتاء البس الحلة من قماش غامق .. والصوف الانجليزى كما تعلم خير صوف يا حليم ..

وتحت نور الكهرباء تلاصق الجسد بالجسد ، وقال المحب : لو صاحبت كبار القوم سيحترمك صغار القوم ويقفون لك ويطلبون منك العون ... ساعدهم يانور العين

وأحمل شكواهم لكبار القوم القادرين على حل المشاكل واخراج الناس من الحبوس .. هكذا يكبر اسمك ويطير صيتك .. وتصبح كما أردت أنا لك أن تصبح يا حليم

وكما تدور السواقى دارت الايام ، وسافر الانجليزى معلم عبد الحليم مع بقية أهله الانجليز الى بلاد الانجليز .. وجاء ضابط من بر مصر وسكنوا المطار وحكموه . وفى اليوم الذى هطلت دموع الحزن من عينى عبد الحليم وهو يودع معلمه الانجليزى ، هطلت دموع الفرح من عينى عبد الحليم وهو يسمع الأمر من المصرى كبير ضباط المطار : انت من اليوم كبير مطبخ المطار .

وهكذا ـ يا اخوان ـ صار عبد الحليم كبير مطبخ مطار مصر ، يجلس على كرسى ، بينما الكل خلية نحل تعمل : يغسلون الاطباق وينشفونها بالمناشف .. ويلمعون الحلل والشوكات والسكاكين بدقيق الفيم .. وينزعون القشرة عن الثمرة .. ويهركون الاخضر ويصحنون اليابس ثم يطبخون وجبة الطعام لياكل ضباط مصر .

على صوت المؤذن والديك تصحو أم عبد الحليم من نوم حلو ، وتحمل أبريق الماء الاحمر بيد والطشت الابيض بيد، تقول بصوت خفيض : يا عبد الحليم . يصحو عبد الحليم ينظر لساعته ويغسل وجهه دون ان يفارق سريره ، وبعدما يشرب فنجان قهوة بلبن وسكر ـ يدخن سيجارة من صنف

انجليزى رسم على طرفها القط الاسود قاعدا على كرسى وفوق رأسه برنيطة ، وقد دخن عبد الحليم سيجارته يفارق سريره ، ويحلق ذقنه أمام مرآه بلجيكية زجاجها فى صفاء الماء ، ثم يدخل الحمام ويستحم ويلبس حلة نظيفة مكوية ، ويشرب فنجان قهوة بسكر ، وينظر لساعته ويخرج ليمتع العين برؤية بنات الصبح حاملات الجرار ، ويركب القارب من بر الشرق الى بر الغرب ، وهناك فى المطبخ يجلس على كرسى وينظر الى ساعته ، ويسالهم : هل سلقتم البيض ؟ ويسمع ردهم :سلقناه ، فيسال : الزبدة والجبن والمربات ؟ ، ويأتيه ردهم : بالاطباق ، ويسالهم : وهل شطرتم الارغفة ؟ فيجيبوا : شطرناها .. وينظر عبد الحليم أفندى لساعته ويقول : الآن قدموا وجبة الفطور لضباط مصر وهاتوا لى فطورى .

وهكذا يا سادة ـ كما يفطر ضباط مصر يفطر عبد الحليم افندى : خبز مشطور مدهون بزبدة وبيضة مسلوقة وبيضة مقلية .. وصحن مربى وقطعة جبن رومية ، ثم يشرب فنجان قهوة من غير سكر ، ويدخن سيجارة وينظر لساعته ويامرهم : بعد ما تغسلوا الاطباق وكافة المواعين هاتو من صنف الخضر كذا ومن صنف اللحوم كذا .. ومن صنف الفاكهة كيت وكيت .

وهكذا يا سادة يختار عبد الحليم افندى نوع الطعام الذى سيأكله ضباط مصر فى وجبة الغداء ، وينظر الى

ساعته ويقوم من كرسيه ويتبعه تابع ، وهناك فى البيت اللطيف ـ يقف وخلفه التابع امام سيدة المكان زوجة كبير ضباط المطار التى تقول :

أريد من صنف الخضار كذا ومن اللحوم كذا ومن الفاكهة كيت وكيت، فيقول عبدالحليم افندى لتابعه : اذهب الى المطبخ الكبير ... وهات سلة بها من صنف الخضار كذا ومن صنف اللحوم كذا ومن صنف الفاكهة كيت وكيت ، وقبل ان يعود التابع ـ يدخل عبد الحليم افندى المطبخ الصغير ويغسل القدور والصحون والشوكات والسكاكين والملاعق وينشفها بالمناشف ، ولما يعود التابع يأمره عبد الحليم افندى بغسل الخضر ونزع القشر عن الثمر ومسح قعر الحلل بالسمن وبياض البيض ، وبعد ذلك يطبخ عبد الحليم افندى ما ستاكله زوجة كبير ضباط المطار مع ابنها حسام الدين وزوجها كبير ضباط مصر ، ويعود الى المطبخ الكبير ليأكل من طعام لم يطبخه لنفسه .

زوجة كبير ضباط المطار هذه يا حضرات : كانت كريمة صفات مقيمة حفلات لها من الصاحبات العشرات وكلامها مسك وعنبر بفضلها عرف الاكابر ونسوة الأكابر وأبناء الأكابر عبد الحليم الذى يتكلم كلام الانجليز ويطبخ طبيخ الانجليز ويصنع احلى حلوى ، وبفضلها طار صيت عبدالحليم فبلغ المدن وعرفه المامور والحكمدار ومفتش الصحة ، كما عرفته زوجة المامور والحكمدار وزوجة مفتش الصحة ،

وكذلك عرمه ابناء المأمور والحكمدار اما غبريال مفتش الصحة فلم يكن عنده اولاد حتى يعرفوا عبد الحليم افندى ٠

لا غرابة ولا حسد يا اخوان ولكنها الحقيقة نحكيها كما جرت بغير زيادة وبغير نقصان :

قام الشيخ المسن ولم يقعد الا بعد ان قعد عبد الحليم ٠ وقبلت أم الخطاف يد عبد الحليم لأنه اخرج ابنها من ظلام السجون ٠وجاء الخطاف بنفسه وقبل يد عبد الحليم وأعلن التوبة على يديه ٠ والنتاش أيضا قبل يد عبد الحليم – وقال : انت الذى انقذتنى من ضرب الكرابيج ٠ وخطيب الجمعة قال عنه : عبد الحليم افندى – الذى يتكلم بلسانين – صورة للعبد الحامد الشاكر ، يكلم أمه – التى ربته – بصوت خفيض ، ويشكر ربه الذى ساق اليه الانجليزى الذى علمه الحرفه التى فتحت لهأبواب بيوت أفاضل الناس، وعبدالحليم افندى يسير بيننا وفى صدره اسرار البيوت العالية – فاذا كلمناه عن ساكنة القصر مثلا ٠٠ كلمنا بالمدح فيها والثناء عليها ٠

مع هؤلاء – يا مستمع – عاش عبد الحليم افندى عيشة العزيز المكرم ، وتلك كانت عاداته : بعد ما يتناول ضباط مصر فى المطار طعام عشائهم ، يعود عبد الحليم بالقارب من الغرب الى الشرق ويدخل بيته فيستحم ويبدل ثوبه ، ويسير ، مع المساء ، على مدمية تحيط به الاشجار ، وفى قهوة

العنبة يجلس مع خلانه فيلعب مع واحد عشرة طاولة ويدخن شيشة ثم يلعب عشرة طاولة مع آخر ويشرب كأسين من كونياك فرنسا ، ويخاطب صحبة الافندية ضاحكا : الشط هو الذى يفصل بين الانجليز والفرنساوى ، ثم ينظر لساعته ويقوم ، ويركب عربة يجرها حصان توصله حتى بيته ٠

على هذا المنوال مرت السنوات ، وعلى هذا المنوال سارت حياة عبد الحليم ، لم يغير عادة ولم يبدل مسلكا الى ان جاء اليوم الذى أوقفته فيه امرأة – وكان فى طريقه الى قهوة العنبة ٠

قالت المرأة : ولدى الغائب يا عبد الحليم افندى ٠

رد عبد الحليم افندى على الفور : يعود سالما باذن الله ٠

قالت المرأة : هذا مكتوب منه ، وقدمت ورقة لعبد الحليم افندى ، وقالت : اقرأ كلامه لى أنا أمه يا عبد الحليم افندى واسمعنى حتى يرتاح بالى وتبرد نار شوقى ٠

وقع عبد الحليم افندى فى حيص بيص وأحس أنه سمكة فى شبكة ، وقال فى سره : الخرقاء بنت الخرقاء تقول لى لقرأ انا الذى لا اقرأ ، وتذكر معلمه الانجليزى فعاتبه : لا أنا ولا أنت حسبنا حساب هذا اليوم ٠

طال الوقت فلعب الفار فى عبء المرأة وولولت : لماذا انت ساكت يا عبد الحليم ؟ ٠٠ تكلم يا عبد الحليم افندى وخبرنى ٠٠ هل جرى مكروه لولدى ٠ ؟ أنطق يا عبد الحليم افندى ٠

صرخ فيها عبد الحليم وهو الحليم : لا تصرخى فى وجهى أنا لا أقرأ الورق ، ورمى الورقة على الارض ٠

هنا جعرت المرأةالملهوفة بالصوت العالى : اه ٠٠ مت فى بلاد الناس البعيدة يا ولدى ٠

اطبق عبد الحليم على فم المرأة بالكفين وأسكتها ، وقال لها مستعطفا : لا تصرخى يا ام ٠٠ ولدك لم يمت ٠٠ ولدك بخير ٠٠ لا تصرخى حتى لا يلتم حولى العاطل والباطل ، ورفع كفيه عن فمها ، وانحنى على الارض وناولها الورقة، وقال لها : أنا لا اقرأ ولا أكتب يا أم ٠٠ أنا افندى بثوبى يا ام ٠٠ وها انا يا ام اشق ثوبى امامك ٠

ولم يذهب عبد الحليم افندى الى قهوة العنبة فى هذا اليوم ، عاد الى داره ، واغلق بابه ، ودس نفسه فى حضن امه ٠

تلك هى حكاية عبد الحليم افندى مع المرأة الخرقاء، رويتها لك ـ يا اميرى ـ كما سمعتها من الرواة الثلاثة ، انا الذى لم اشهد زمانه ، والله على صدق ما حكيت لك ـ يا أميرى ـ شهيد ٠

حكاية الريفية

صفية :

العذراء يتيمة الأبوين تبيع السلة التى تصنعها أم الأم من خوص النخيل ، لتاكل من كد يدها وعرق جبينها ، وتحيا ككل بنات الفقراء فى قفص ، بأنتظار زوج فقير يمسك بيدها ويقودها للعيش معه فى قفص ، وتمر الايام وتفقد الحلوة ابتسامة الفم وعافية البدن ويبقى الأبناء والزوج المكدود والصيف والبرد والحشرة الضارة وتراب الارض وعفونة المش ورغيف الشعير باليد ، ولا فكاك لبنت الفقراء من ظلمة المصير المحتوم المسطور فى لوح الغيب الا بالفعل الزاعق ٠٠٠٠ ثم ياتى النور ويحكون عنها فى الحكايات :

(ولما كثر الكلام وشاع عن جمال الفقيرة وبلغ مسامع الغنى فى قصره ، تعلق بها قلبه قبل ان يراها ، وقال لرسله هاتوها ، فلما احضروها ورأى الغنى شعر الخيل على رقبة الطير والوردة الحمراء بعين بقرة متوحشة ، قال : سبحانك ربى ٠٠٠ كأنها الطبيعة ام الكائنات ، وارسل

فى طلب القاضى ، فجاء القاضى فى الحال وكتب فى كتابه : على شريعة الله وعلى سنة خير الانام تزوج صاحب القصر وخزانة المال من ذات الضفيرتين اخت الشمس والقمر)

يوم الثلاثاء :

يلتقى اكابر القوم فى البورصة ويلعبون لعبة « الانسان والقدر » بالخيط ودمية الخشب :

* فيذبح الجزار البقرة

* ويرتفع سعر الطماطم من قرش الى قرشين

* وتفقد الأم ابنها فى زحام اليوم العظيم ، فتسأل عنه المتسول الأعمى ٠

* وتصرخ أخت الايتام : الغشاش سرقنى فى الميزان وباعنى البطاطس معطوبة ٠

* ويمد الحصان الشريد فمه وياكل من غلة مكومة فتنهال على بدنة عصا التاجر والمشترى والوسيط والكيال ، فيغادر المكان وهو يصهل : هيهات هيهات يا اراذل الناس ٠٠ من منكم يجسر فيعتلى ظهرى و يجبرنى على جر عربة بعد موت صاحبى ٠

* وللخارجين من السوق يغنى المجنون من فوق حائط متهدم:

« ولع الوابور ياجودة ٠٠٠ القطنة اكلتها الدودة »

« والبنات عايزة تتجوز ٠٠٠ والصبيان نفسها مسدودة »

فيضحك صاحب العقل من خرقه ، ويضحك رب العلم من ركاكة شعره ، ويرميه صبى بحجر ، وتدس بائعة لأساور الزجاجية حفنة بلح فى حجرة وتطلب من الله ان يلطف بحالها وحال زوجها المريض وحال المجنون ٠

في يوم الثلاثاء :

باغتت صفية ابن الأكابر ولطمته على خده لطمة أوجعته فطار الشرر من عينيه وصرخ فى صحبه : اضربوها ، لكنهم وجدوا الانثى الضعيفة محاطة بعشرات الأنفس لحمايتها من غضبة الذكر المفترى ٠

قال المضروب : والله بلا سبب

ردت صفية : كاذب

وقالت بائعة اللبن الحامض : قرصها بفخذها

وردت القريبةمنها : لا يا أم حفصة ٠٠٠ رماها بالكلام اللين فرمته بالخشن المؤلم ٠

ودق العجوز الحدوة بحافر الحمار وتكلم فى عبه : من جاور الحداد اكتوى بناره ٠٠٠ ومن خرج من داره قل مقداره٠

بعد وقوع الواقعة :

تزاحم شباب الفقراء ـ على باب صفية المغلق ـ يخطبون

ودها ويباركون عفتها وينادونها لتعيش فى حماية سواعده كريمة النفس • فسالتهم : ومن يطعم الجدة العجوز ؟ • وتملصت من وعدهم وخاطبتهم بلسان يحفظ قول السابقين لكل ثمرة أو أن قطف ولكل زرع وقت حصاد •

ونهرت صفية مالك القيراطين المتزوج من امرأتين ونعتته بالغراب • وقالت صفية للعجوز الميسور الحال : لكل حبة مكيال يا جدى •• ولما تقدم لخطبتها ابن الأكابر ـ الذى لطمته فى السوق بلا سبب ـ رفضته : وهى موقنة من انه ما جاء الا لينتقم ••• يريد ان يدس لها الفخ تحت ورقة سيكتبهاشيخ ويشهد على ما فيها شهود ••• ثم يكون الهوان الذى ما بعده هوان •

النعيم:

تزوجت صفية من غريب عن القرية : لعب فى تجارة الحبوب والاقطان لعبة حققت له حظ التجار وصيت التجار ومكانة التجار المرموقة ـ فملك البيت المرتفع السقف الذى يقوم على أعمدة بيضاء من الحجر ، وعاشت صفية ـ كما تروى الحكاية :

(فراشها لين من ريش النعام ، وحلوها الفاكهة طازجة ومطبوخة ، وطعامها لحمة فى صينية أو حمامة مشوية بدولابها الثوب الملون والثوب المنقوش والثوب المخرم وصندوق زينتها مقفل على المكحلة والسوار والحجر الكريم

تحت قدميها عبدة سوداء وعن يمينها جارية بيضاء تروح بمروحة ، لو صرخت حضر الطبيب ولو زعقت هرول خدم ، وان طاف بخيالها خاطر سبب الضيق نظرت من شرفة ذات مخروم لترى الماء الجارى والنبات المتحرك وقبة السماء خضراء) •

الحافة:

كان من عادة صفية ـ فى الليلة التى يكتمل فيها القمر ـ ان تركب العربة التىيجرها حصانان أبيضان يسوطهما حوذى يجيبه المسدس الفاتك بالأرواح ، وتنظر من وراء ستائر الدانتيل المخرمة الى ابن العامة وهو يقفز خوفا من العجلات وأرجل الخيل والسوط كما تفر اشجار النخيل وأشجار مخاط النبى وكلاب الطريق ـ فتضحك صفية من القلب ، وكلما راح بصر صفية الى القاعدين والنائمين أمام الدور المبينة من الصفيح والعيدان والطين والقش ـ انكمش القلب •

(أنت يا صفية بنت هؤلاء ـ رغم النعيم الذى تقلبين فيه، لقد هربت ـ والى الأبد من مصيرهم المعتم •• الا انك ـ والى الابد ـ مربوطة بسلاسل من حديد الى ابدان اهلك الفقراء التى نخرها دود القبور منذ زمان بعيد ، الحق حق يا صفية ـ فتكلمى بالحق :

ذاكرة الفقراء رحيمة تعرف النسيان ••• أما ذاكرة الاغنياء فلا تعرف النسيان قط ••• لم يحضر الاغنياء يوم

عرسك ٠٠ وفى العيدين لم تزرك غنية واحدة ٠٠ وفى ايام المرض التى مـرت بزوجك ـ لم يسأل عن صحته غنى واحد، زوجك مثلك يا صفية من صلب فقراء ـ ضحكت له الدنيـا كمـا ضحكت ذات يـوم من الايام) ٠

الهـاوية:

السائرون فى طريق الانتقـام احكموا غلق المصيـدة على الزوجين : فباتا لا يلتقيان تحت نور ٠٠٠ وعلقا الامل علـى الأيام حتى نزول الغمة ٠٠ الا أن الأيـام جعلت واحدهما يقنع بنقيصة الاخـر ويسخط على نقيصته هو ـ ومـن هنا نبت الشعور بالشفقـة على الاخر المصحوب برعـدة الخـوف مـن الآخـر ،وهكذا استعصى الحب الذى يوحـد الاجساد ويثمـر البنين ٠

السـلام :

جـاء يـوم وراى مـلاك الموت ـ وهو يطوف ـ شـجرة الحيـاة تحمل فرعين يابسين متباعـدين ٠٠٠ فقصفهما ٠٠ وطوحهما لريح الخريف الابـدية ٠

حكاية «أم دليلة» طاهية الموت

بعينى هاتين ـ وأنا أعرف انهما طعـام الدود الملعون فى يـوم معلوم رأيت البنت يا اميرى تركع على ركبتها وتبلـل بالدموع قـدم والدها ـ وتقول : زوجنى يا أبى من الغنـى ولا تجعلنى كشجرة جف عودها ومال فرعها لمـا غـاب عنها المـاء ٠

وباذنى هاتين ـ سمعت الاب الامين يحاول رد ابنتـه عن مرادها بالكلمة الليـنة وبحكمة الاقدمين ـ قال : يا ابنتى ٠٠ المـال يصلح حال بيتى انا الفقير ٠٠ لكن الرجل عجـوز ٠٠ وانت بستان بثمر ٠٠ وهذا يغرى الغير باعتلاء حيطانك ٠

ناحت البنت ـ ودموعها على الخدين دجلـة والفـرات : لا تخف يا ابى ٠٠ قلبى البارد هو الذى احب ذهبـه البـارد

ومالت الام الوصف ابنتها وناصرتها ووسوست فـى اذنها : البنت سر امها ٠٠ ولنا كـلام ٠

هنـــا قلت أنا لنفسى : وقع المحظور يا ولد ٠٠ وها هــو الزمان يكــرر على مسمع الدنيا ـ حكاية أم دليلــة طاهيــة المـــوت ٠

وها انا اســوق اليك الحكاية القديمــة يا اميــرى ، مــن بدايتها الى منتهاها بتفصيل محكم :

قالت ام دليلة لزوجها ـ وعصرت على الفــول ليمونــة : لا تجزع من قولهم (الرجل الفقير بــاع ابنته للعجوز الغنى) واسمع قولى (قل للعجــوز الغنى الــراغب فــى مصاهــرتك والزواج من ابنتك ٠٠ سأخذ مهر ابنتى ثقلهـا من نقـــى الذهب ٠٠ ولن تدخل بنتى قصرك العــالى ألا بعــد مـــرور شهر) (وحين يصرخ الغنى : هاتــوا الميــزان) (سنمسك نحن بطرف الخيط ونشــد عامــة الفقــراء الى بيتنــا ليمدحنا لسانهم ويرفعنا الى مراتب الاغنياء) ٠٠ لو سألتنى (كيف يكون ذلك ؟) سارد عليك بالآتى (سنذبح كل يــوم وحتــى يمــر شهر بهيمة لياكل الفقير والمسكين وابــن السبيل ٠٠ سيكون شهرنا بثلاثين يومــا تتدحرج ٠٠ حين ذاك ستتطلع عيون فقــراء المسلمين الى شمس يومنــا كمــا لو كــانت هــلال العيــد ٠٠ هكذا يحسبون اليــوم عامــا ٠٠ وثلاثون عاما من اللحم يا زوجى ستردم الحفرة التى حفرتها أعــوام الشــدة بدماغ الفقير) ٠٠ وهذا كــلام الفقيــر لصــاحبه الفقير ـ بينمــا أصبعه يشير الينــا : (ها هم الاغنياء منذ زمان بعيــد يصاهرون ابن طبقتهم الغنى) ٠

وقالت ام دليلة لدليلة الراقدة فى حضنها: لن اخاطبك كما خاطبت الأم البلهــاء ابنتهــا ـ وقالت (اغرفى من ماله وارمى فى حجرامك) ولكنــى ساعلمكفى شهر واحــد أنا المجـــربة طبخــة الموت ٠

أ ـ وضــع القــدر على الكانــون :

تحت الخميلة ـ همست دليلة فــى اذن بعلهــا العجــوز : احس برفسة الجنين فى بطنى ٠

قطف العجوز الغنى من كل خد برقوقة وزعق فى خــدمه الى بالحكيم الفاهم ٠

ولمــا جــاء الحكيم الفاهم دخل حجرة نــوم دليلة وبعد ما رد البــاب عاين جسد دليلة وفتح الباب وقــال للعجــوز : مبروك ـ ادخل ورش مــاء الورد على وجــه أم وارث مالك واسمك ٠
حط العجوز كفه على قلبه وأن : انجدنى ايها الحكيم الفاهم فقلبى لا يحتمل الفــرح ٠

ب ـ القــدر فــوق نار هادئة :

دست دليلة قشر البيض تحت فراشها ، ورقدت وتقلبــت وجعرت : آه يا ضلوعى ٠ جــاء العجوز يجرى كصبى ، ووقف أمام سرير دليلة وهو يلهث ، وشوح بيــديه فى وجــه خدمه وقال : هاتوا الحكيم المعالج ، وراح يلف ويدور حــول سرير

دليلة ، يفرك قلبه تارة ويفرك راحتيه تارة أخرى ـ حتى جاء الحكيم المعالج ٠ رد الحكيم المعالج الباب وعاين جسد دليلة وفتح الباب وهو يضرب الكف بالكف ـ وقال للزوج العجوز : تلك حالة محيرة ونادرة ٠٠ أما الجنين فبخير وهذا من فضل الله ، وفتش الحكيم المعالج فى جسد الغنى وقال : كن على حذر ٠٠ فنسيانك لسنك يفتك بقلبك لا تفعل كما يفعل الشباب ٠

جـ ـ تحت القدر نار حامية :

كسرت دليلة مرآة قصرها الشتوى وصرخت : الجرح فى رقبتى ٠ ركضت الوصيفة ـ وهى عين لسيدها ، وقالت : سلم عقل سيدتى يا سيدى ٠ وضع العجوز راحته على قلبه ليحميه من الوقوع ، وهرول حتى بلغ غرفة الزينة ، وخاطب دليلة : سبحان الله فى طبعك يا دليلة ٠٠ أنا لاأرى الجرح ٠٠ لكنى أرى رقبتك كبرج لبنان المطل على دمشق ٠ بكت دليلة وظلت تلطم خديها وصرخت : ها هو زوجى يتهمنى بالعمى وها هو يلاطفنى بكلام جميل لانه يظن اننى بلهاء، ولم تسكت الا بعد ما احضروا لها الحكيم العارف الذى طلع برج لبنان ورأى دمشق ولما نزل خرج من غرفة نوم دليلة وهمس فى اذن العجوز الغنى : وريثك بخير ٠٠ وسيدة بيتك مريضة بالوهم ٠٠ لاطفها ٠٠ وأحطها بالمغنيات والماشطة والمدلكات والمضحك الخصى وضاربات الدفوف ٠٠ وعامل قلبك العجوز برفق ٠٠ لا تحزن ولا تفرح ٠

د ـ بعد ما ينضج الطبيخ ـ ترفع القدر :

فى القصر الصيفى ـ سالت دليلة زوجها الغنى العجوز : متى يبتسم لى الزمان واراك وقد نفضت المرض عن بدنك آه ٠٠ متى يقبل هذا اليوم ؟ ٠٠ وقت ذاك تجلس انا وانت متجاورين على كرسيين ونطل من شرفة قصرنا العالى ٠٠ ونمتع العيون برؤية الماء والخضرة ووجوه ناس هذا الزمان، وصرخت دليلة فى الخدم : الينا بكرسيين ٠٠ انا وزوجى هناك بشرفة قصرنا العالى ٠٠ الينا بسلال الفاكهة وجوزة الهند ٠٠ وهاتوا لنا اطباق الجوز والفستق واللوز المقشور ، وحطت دليلة يد زوجها العليل فوق كتفها وزحفت به الى الشرفة ، وهمست فى اذنه : فعلت ما فعلت خشية ان تموت ولا يتحقق حلمى ، وبالشرفة زقت دليلة باطراف اصابعها حبة عين جمل فى حلقوم بعلها الغنى العجوز ، وسالته ـ واشارت بيدها : تلك البنت الماشية تدب وتتثنى ـ هل تعرفها ؟ ٠ نظر العجوز الى الاسفل ورأى : الماء والشجر والزرع والزراع والحصاد والحاصد ٠٠ والاجران وحامل المذراة ٠٠ لكنه لم يعثر على بنت ماشية او واقفة ـ فقال لنفسه: من الاسلم لى ان اجاريها حتى لا تتهمنى بأنى اتهمها بالعمى ، وقال لدليلة : ها ٠٠ تقصدين تلك البنت الحافية ٠٠ اعرفها ٠٠ انها بنت نافخ الكور ٠ فسألته : مالى اراها معلقة البصر بشرفة قصرنا وكانها تقول لى : قومى لاجلس مكانك ٠ قال الغنى العجوز هذا حال الفقراء يا دليلة٠٠ يتطلعون بعيونهم الى فوق ـ فرؤية الاغنياء تبهجهم وتجلب لقلوبهم المسرة ٠ كشرت دليلة : البنت تنظر اليك انت لانك

تعرفها وها هى تشير بيدها نحوك ٠٠ وانا الح بعينك الرغبة اسند العجوز رأسه على صدر دليلـة وسقطت عمامته فلـم يلتقطها وقال : آه يا دليلة ٠٠ هذه البنت نملة ٠٠ وكذا كل بنات العالم ٠٠ اما انت يا دليلة فقمر فى السماء ٠ مالت دليلة وقبلت رأسه الاصلع ، وتمتمت : انا احبك واغار عليك يامالك قلبى احلفك بالله وبرسوله الكريم ـ لا تطلقنى من أجل تلك الجربوعة ٠٠ لا تطلقنى يا سـيد بـدنى ٠٠ فانا مـن حبك لا أنـام الليل ٠

كح العجوز ـ وقال : وانا يا دليلة لا انام الليل ، ولا انام النهار ٠٠٠ وهذا ما فعله بى حبك ٠

هـ ـ رش الملح والتوابـل :

كحلت دليلة الرموش ورشت العطر على الثـوب المنقوش وربطت العنق النافر بمنديل ملون وأمسـكت بيدهـا وردة ، وطلعت على زوجها الراقـد فـوق سرير المرض بوجه يضحك وجسـد يرقص وقالت : والآن قل قولك يا رجلى ، ومـالت فقطف العجوز من الغصن الدانى قبلة ، وقال : انا فى النعيم وانت حـورية ٠٠ وانا فى الجحيم وانت جنيـة ٠٠٠ اخ ٠٠ كل مرادى ضجعة فوق صدرك ٠٠ ثـم اغمض العين ٠ فتحت دليلة ذراعيها ـ وقالت : تعالى يا رجلى ٠٠ هنا ـ ياوالـد ابنى ستستريح ٠٠ تعال ٠٠

حكاية الصعيدى

الذى هده التعب ، فنام تحت حائط الجامع القديم

صحـا على صرخة ورجدها فـوق رأسـه تبكى ، تلبس الأسود وتحمل بين يديهـا طفلا ميتـا ٠ قالت ـ يافلان يابن فلانه هل ضاقت بك الدنيا الواسعة فلم تجـد غير هذا المكان تزاحمنا فيـه أنا وأولادى ٠٠ لقـد قتلت ابنى يا قليل النظر ٠٠ وحتى يخف حزنى على ولدى عليك ان تفارق بيوتها قبل ان يـدركك صبـح ٠

لت الصعيدى فى الكلام وعجن ـ قال : اتيت الى المكـان ولم يكن بالمكـان غيـرى ٠

فصرخت فيـه : لو لم أكن جنية مؤمنة بنت جنى مؤمن لركبت كتفيك عامين قمريين كمـا تركب الدواب يا دابة ٠

ضرط الصعيدى ضرطتين ولـم ذيـل ثوبـه وأطبق عليـه بأسنانه وانطلق يسابق الريح وهو لا يصدق أنـه أفلت مـن

شر جنية تسكن الخفاء ولا يراها ابن آدم الا حين تريد هى لابن آدم ان يراها .. بعد وقت صدق أنه نجا وسال نفسه : كيف أبارح أم القرى التى تلم عظام جدودى ؟.. سأذهب الى حامل البخارى حافظ كتاب الله المهاب من الجن واشتكى الجنية .

وقال :

وجدته قاعدا تحت العنبة وامامه الحطب مشتعل ، جعلت المسافة بينى وبينه قصبة ونصف قصبة وقلت السلام عليكم ، ولما لم أسمع رده تقدمت وجعلت المسافة بينى وبينه قصبة وقلت السلام عليكم ، ولما لم أسمع رده تقدمت وجعلت المسافة بينى وبينه نصف قصبة ورددت السلام فلم يرد ـ بينما النار التى اشعلها لا تزال مشتعلة ، قلت وقد فهمت : انتهى كل شىء اذن .. جاء الطواف قبلى وقضى الأمر ، وحفنت من تراب الارض بالكفين وكشحته على النار فخمدت ، وقعدت ابكى .

(كانت اليد الكبيرة يا أميرى قد رسمت له الطريق ـ خطين حديدين تجرى فوقهما القطارات .. وأعمدة خشب تشد أسلاك التلغراف) .

لما وجد الصعيدى الطريق مرسومة أمامه مشى فيها ، ظل يمشى وبلاد الله تترى حتى بلغ أم المدن فدخلها حافيا متورم القدمين فى اليوم الخامس من ذى الحجة وكان العام

عام الذئب والدببة ، وفى بحر من الحديد والنار رأى الانسان يحجل ويطلب الصدقة ورآه على البسكليت ورآه يدب ورآه بالاتوبيس وبالترولى وبالترماى ورآه يطير ورآه يسوق العربة ، وقف يتفرج ويتعجب ونسى زمانه حتى جاء الرجل وسأله عن شخصيته . قال : فلان ابن فلان . قال الرجل : انا اسأل عن بطاقتك ؟ . قال : معى بطاقة . قال الرجل : هات ، واخذ الرجل البطاقة ـ وقال : انت المرسوم امامى ... يبقى الكلام المكتوب وتلك معضلة فانا لا اقرأ . قال الصعيدى لنفسه : ما دام لا يقرأ .. وما دام الكلام المكتوب كله عنى انا .. وانا الذى قلت هذا الكلام لكاتب البطاقات فكتب كاتب البطاقات بطاقتى ... اذن تلك فرصتى للتباهى ، وقال للرجل : انا أقرأ ، ومضى ينظر فى البطاقة ويتذكر كل ما قاله لكاتب البطاقة ويقوله للرجل . باغته الرجل ولطمه على فمه ليسكت فسكت ، وظل الرجل يضربه بالكف على القفا وهو ساكت ، ولم يكف الرجل عن ضربه حتى وقع الصعيدى فى أول يوم له بأم المدن على الارض مغشيا عليه ، افاق فوجد حواليه اناسا يجهلهم ويجهل قدر الشر وقدر الخير فى نفوسهم (الشر مطوى داخل كل نفس ولا يعلم دواخل النفوس يا أميرى الا الله) كان عليه ان يتكلم معهم ليعرف مقاصدهم فتكلم ، وكان عليهم ان يردوا على كلامه فردوا ، وفهم الصعيدى ان الناس حوله (متفرج ومشفق ومصلح وناصح) ...

قالوا : لا عليك .. الرجل شرطه ، وقالوا : انت هنا

ولست هنـــاك ، ونصحوه ان يغير محـل اقامته وقالــوا : بسيطة .. شج حاجبك الايسر ، وقالوا ما دمت من صعيـد مصر فقل لنــا الى أى طائفــة من الصعايدة تريـد ان تذهب؟ وعددوا لــه قومه (باعــة خضار وبوابون وعمال بناء وباعـة جوالون) . قال لهم : لا مــال معى اشترى به الشىء لابيعه، وقال لا املك غيـر بـدنى ..

وقالوا : اذهب الى عمــال البناء ، ووصفوا له الطريق .. ذهب الى عمــال البنــاء وكان النهار قـد انقضى فوجدهم قـد اشعلوا النــار وتحلقوها . رد السلام وقال : انا ابـــن فــلان . قالوا: اهلا انت منــا . وحكى حكايته . قالوا له : ما حـدث لك يا فــلان حـدث لعبـد الحليم افندى . تحسس جرحه وأن ، قال : ليت أمى مــا تزوجت ابى ـ وكان قاعـدا فرقـد . اقاموه ، وسقوه العدس الساخن ودعكوا قدميه بالماء الساخن والملح ، ولا موه ، لأنه اتى بمفرده ، وقالوا له : الارض مرسومة يا فلان .. ونحن لا نمشى هنــا فرادى واذا مشينــا فنحن قــوم نعـرف الحد ولا نتجاوز الحدود ، واعتذروا عــن ضيق ذات اليـد ، وقالوا : اليــوم يوافق قبل نهاية الاسبوع بيــوم وها نحن لا نملك المــال لنشترى البن لجرحك ، وقــام واحـد منهم ودفس الرماد فى جرحه ، ووعدوه بشراء البـــن لما يقبضوا راتب الاسبوع وقالوا له : لمــا ينتهى نهار الغد ينتهى الاسبوع .

ولما انتهى الاسبوع اشترى الصعايدة البن ودفسوه فـى

جرح الصعيدى ، واشتروا « منديل محلاوى » وربطوا بـه الجرح . وتتالت الاسابيع وجــاء الشهر وشفى الصعيدى من جرحه وأورام قدميه وطابت له الحيــاة مع أعله الصعايدة ـ الا أنه فى الليالى المقمرة كــان يتجنبهم وينــام مبكرا قبـل ان تطلع القمـرة . وظل يتنقل معهم من مكــان لمكان ويبنــى معهم العمارات من الطوب والحديد والرمل والاسمنت ويغنــى مواويل حمراء ومربعات زرقاء واللوبالى الاخضر لكنــه لــم يسمع صوت سواقى أم القــرى .

ومن زملاء العمل اختار لــه معارف من ابنــاء المدن الحرفيين سكان الحارات (الحدادون ... النجارون .. عمــال رصف البلاط .. النقاشون) يزورهم فى بيوتهم ويشرب معهم ومع نسوتهم الشاى ويأكل مع أطفالهم البطاطا .

دعــوه مــرة الى حفل ختان احياه مطرب بأرغول وراقصــة لحمها أبيض تــدق الصاجات فيقــوم ناس ويقعد ناس . قام مع القائمين وقعد من القاعدين ـ وكــان قـد شرب الحشيش مع من شربوا الحشيش ، وتذكر أم القرى البعيــدة فترحم على روح جدوده وهاجت شجونه وتقــدم من المكرفون وأمســك بشان ورق وأمر المطرب بالغنــاء لام القــرى ، وتكلم فــى المكرفون فلعلع صوته : السلام على الصعايدة الرجال يبنــون العمارات ويعمرون أم المدن . قــام واحـد من الحرفيين أهــل الحى ودفع للمغنى والراقصة ربع جنيــه وتكلم فــى المكرفون وقال : السلام على ارباب الحرفة الرجال من ابناء ام المــدن

فهم الذين يعمرون أم المدن · وعلى كلام الحرفى قعدت الراقصة تعجن لحمها الابيض وغنى المغنى اغنية ·

وكادت تنشب مشادة بين الحرفى والصعيدى لولا الصعيدى العاقل الذى قام ودفع للراقصة والمغنى نصف جنيه وقال فى المكرفون : السلام على الجميع ·· السلام على كل الحاضرين من صعايدة وأهل حرفة··السلام على الرجال يبنون العمارات ويعمرون أم المدن · وقام حرفى خفيف الدم وحيا الصعيدى العاقل ودفع نصف جنيه للراقصة ·· والمغنى وقال فى المكرفون : الصعايدة ونحن نبنى العمارات ونعمر أم المدن ولا نسكن فى العمارات ·· السلام على سكان العمارات ·

فضحك الكل ، وهكذا انتهت الليلة بخير ·· ومن تلك الليلة وصاحبنا الصعيدى يكلم نفسه : نحن الصعايدة نبنى العمارات ·· ونحن واهل الحرفة لا نسكن العمارات لكننا نحن الصعايدة نترك الصعيدى منا ـ وهو اكبرنا سنا ـ على باب كل عمارة نبنيها ، وسأل نفسه : متى يأتى دورى لاستريح واقعد على دكة ··

ظل صاحبنا يضرب فى المقبل بعد ما طرح الماضى ونسى الحاضر ، قال : الطيب محمد وقع من فوق الى تحت فقصفت رقبته وفقد دوره ·· ومحمود الساكت فقد دوره ـ لما قبض عزرائيل روحه وهو نائم ·· كذا عبد البارى حين اراد ان يتمخط وهو قاعد بيننا فتمخط روحه ·· يأتى دورى لاصير

بوابا قبل عبد الحارس وعبد الملك وبعد حجاج ومحمود الظنى وعبد الحاكم · ·

وفى نهار مشمس وكان يطلع الدعامات الخشبية المربوطة بالحبال وعلى كتفيه حمولة الرمل والاسمنت ـ طرح صاحبنا وضرب ونسى الحاضر ، قال : لما ننتهى من بناء هذه العمارة سيقعدعلى بابها عبد الحاكم وتمضى لنبنى العمارة التى سأقعد على بابها انا فوق دكة من خشب·

فى هذا النهار ـ يا أميرى ـ ضيع الصعيدى عمره كما ضيعت بائعة اللبن الحمقاء اللبن ·

حكاية برأس وذيل

يا أميـرى :

مـر شتاء ، وهذا شتاء ، وكل الوصفات لم تفلح فـــى القضاء على وجع الروماتزم ، وأم شعلان حرم جاد المـــولى شعلان تولول ، والصاحب المجرب ينصح جاد المولى أن تاكل أم شعلان لحم قطة سوداء، قطة سوداء وبالبيت قطة بيضاء!! قطـة بيضاء ، لا قطة سوداء ـ يا جاد المولى ، فلمــاذا قطة سوداء ؟ ٠

• (هو السر ـ يا اميرى ـ احاط بـه كالسـوار بالمعصـــم كالعسكر بسوق الخميس ما دام البيع والشراء لا يتم بغيـر الكلام ، هو السر وهو عاجز بعقله حتى آخر العمر وكــــذا وكـذا الكل عاجـز ـ الى ان يأمـر الله الحريق فـى ذلك اليوم لتحترق الدنيا التى لا تزال تخالف) ٠

اشترى العبد العاجز ـ جاد المولى ـ فص أفيون من فكرى الكور ودفع لـه من جهـد بدنه ربع ريال ، والشابة (حلـوة رغم الصفرة والقشف وتسوس الاسنان) صنعت له فنجـــان

القهوة ـ كما أمـر ـ سـادة ، فشربه ومص قص الأفيـون وأطبق على حمامة راقـدة على بيضها ونزع ريشها ريشـة ريشـة وقـام وعاشر أم شعلان ـ وتلك عادته لما ينتـوى التدبير والتفكير :

(هى شابة ـ رغم قساوة الايام ، حلوة ـ رغم نـدرة الصابون ، وحرام يارب أن تصير كسيحة ، وحرام والله ان يطلقها ـ لاقدر انله ـ فهى مطيعة أنجبت وكلفته فوق العشرة جنيهات مهـرا دفعها وعليه خمسة جنيهات يدفعها لو طلق ـ لطف الله ـ فالطلاق بغيض والحياة مـع كسيحة بغيضـة ، والزواج من ثانيـة بطلاق الأولى = خمسـة عشر جنيها × زمن نحن فيـه + ما يحكم به القاضى ومن جاوروه ـ لا ارانا الله أياهم ، والزواج من ثانية بغير طلاق الأولى = عشرة جنيهات فى زمن نحن فيـه !!) .

خبط جـاد المولى جبهته ثلاث خبطات موجعة فقـامت ام شعلان وصنعت له فنجان قهـوة آخـر شربه وضاحكهـا فرقـدت فعاشرها وضحك فضحكت فظل يضاحكها حتى نامت

(الافيون ـ يا أميرى : رعاك الله ـ يشعل النـار فـى الرأس ويصنع الوهج الحق والوهج الخادع لتلوح الطـريق البعيدة قريبة : وجـاد المولى شعلان الآن (الذى لا نـراه) بليل اسود يمسك بجذع اسود لشجرة صمت سوداء يهـزه لتساقط الثمار السوداء المرة فيجمعها بعـد ضنى من أرض

سـوداء متشـققة ويهـرول فى طـرقات سـوداء حتـى يبلـغ داره (فنـراه تحت لمبـة جـاز هـى الشـيطان بعينه بألسنة من نار ودخان يطوح بسكاكين مثلومة مـن ظل وسكاكين من نور) وها هو جاد المولى يـرى أم أبنـه تحضن شعلان ابنه النائم دومـا ويرى القطة صاحية بيضاء ويرى الثمر المر بكفيـه اسود فيرميه فى حلة مـاء ويوقـد النـار بالحطب والكبريت ويرقب المـاء الـذى سيصير لمـا يغلى اسود والقطة بيضاء حتى يلونهـا المـاء الاسود ولا فرق بين لحم قطة سوداء وقطة بيضاء ـ لكنـه ما وقر فى النفس من زمان بعيـد صنع للجدود كل هذه القبور : وبذلك خبـرنا الغراب الاسود) .

هو الافيون ـ يا اميرى ، كذا هى قـدرة ابن آدم صـاحب الحظ القليل من علم العلام الرحمن على العرش استوى :

قال جاد المولى : ها هو ثمر الصمت المر فى الماء .. والمـاء غلى وصار اسود ... ادلق المـاء مغليـا على القطة البيضـاء فتدوخ وتصير سوداء .. ثم اهزام شعلان فتصحو من نـوم وترى القطة سوداء فيدخلها اليقين .. وبالقضيب وهو مـن حديد اضرب القطة واضرب حتى تصير ضعيفة فأذبحها ـ كما امـر الله .

ذلك ـ سيدى الأمير ـ ما فعله ابن ادم الملقب بجاد المولـى شعلان ، كان قد دبر وعرف ما يريد ، فلما فعل فى القطـة

فعلته فهمت الاعجمية الحيوان ويا للعجب ما يريـد.، ربمـا ، ـ سيدى الامير ، عافاك الله ـ لأن الماء كان مغليـا ، خمشته القطة فى ركبته وعضته بعــد ان ولولت كمــا تولول بنت حواء ، فصحت ام شعلان وصحا شعلان من نــوم طال : على ولولة انثى وصرخة ذكـر ، وخجل جاد المولى من خوفه واربعة عيون تراه يواجه قطـة تكورت ـ فواجه القطة وضرب ضربـة الخائف فخابت وضرب ضربة الذكر فأصاب وضرب ضربــة الأب واصاب وضرب ضربة الكـاره واصـاب فضرب وضرب كاتما صراخل ، بينمـا القطـة الـدم اللحـم تخمش وتصرخ تخمش وتصرخ ، آه يا مولاى حتى ماتت ...

وتلك اميرى نهاية حكاية الاعرج والكسيحة .

حكاية بن خارف

كان أبوه يملح اللفت ويلونه بزهر العصفر ويبيعه ـ تلك اميرى اول ضربة على قفـا عباس من دنيـا ظالمة بنت كلب والت الضرب بغير رحمة :

طلق ابوه امــه وكان اسمها اسماء بعد ان انجب منها سبعة ماتوا الواحد بعـد الواحد ـ وبقى عباس ليرى أمـه العجوز ممزقة الثوب حافية تجمع وسخ البهائم وتبيع للكل وقـود الافران حتى للكاره ما دامت تبيع وما دام يدفع .

وتزوج ابوه منَ بنَت بائعــة كَرشة اسمها صالحة فكـانَت شديدة القسوة عليه لأنه مولع بالحرب وفرقعة البمب ـ بينما البيت حجرة ضيقة وصالة ضيقــة .

بائعـة الكَرشَة ـ التى اسمها صالحة ـ انجب ابـوه اما غالية ، وكانت كامها مليحة الوجة مدورة البدن

حلوة لسان ، كلامها اثواب من حرير هفهاف مطـرز بالترتر الغماز ناعم نعومة بطن حية خداعة تلدغ : لقـد رضعت غالية من ثدى امهـا اللبن الاسود ، اما عباس « يا اميرى » فكـان عليه ان يناديها يا اختى وان ينادى امها يا امى ·

يالها من حياة دون ، يا لتلك الايام من ايام ، كل يـوم بليلة طويلة ونهار طويل ، وجلد عباس جلد ادمى ، وجـلد الادمى لم يكن فى يوم من الايام جلد جاموسة بليدة ، كما ان الادمى لا يملك قـوة ثور نطاح حتى يغضب غضبة ثـور نطاح ، وانت عليم بل انت اعلم الناس يا اميرى ان لكـل ليل اسود نهاره الابيض ولكل النهارات السـود لياليهـا البيض - كذا الصغار ابنـاء الفقـراء يكبـرون فيحطمـون الزجاجات ويخرجون لدينـا الشوارع بملابس الحيوان رجالا يلتقطون الرزق بمناقير الطير : خطافون سـفهاء جهلـة ·· يتجنبون النور الفضاح ·· قتلة لا يقتلهـم الا العشـق ·· غايتهم الفوضى واقلال المدن الامنة - لهذا تبغضهم الحكومات وتطاردهم الشرطة ·

الى هؤلاء « اميـرى » كـان لابـد ان ينتمى عباس لمـا قال لنفسـه (الشارع افضل من البيت الف مـرة) الا ان عباس اختار - بتوفيق من الله - ثوب الثعلب الذى يمـوت حين تريـد منه ان يموت - بهذا : نال رضا حلوانى فعمـل صبى حلوانى ، ولما انتهى اجـل الحلوانى مـات الحلوانى فبكاه عباس لينال عطف صاحب مقهى كان صديقا للحلوانى ؛

وبالمقهى قضى عباس السنوات وتدرج من مرمطون الى صبى جرسون وعرف العاطل والباطـل وصبيـة الورش والمخبـر وشارب الكحول وباعة الصحف والصاحب الذى يشتم صاحبه من خلف ظهره وهذا الـذى لو غضب لحطـم الكراسى وقلب الطـاولات ·

من هنـا - سيدى الامير ، من مقهى ببابين كـل باب يطل على حارة صـار لعباس ثلاثة اثواب : ثوب ثعلب ماكر وثوب قرد وثوب قط له سبعة ارواح ، يخلع هذا الثوب ليلبس هذا الثوب أو ذلك حتى جـاء يوم ووقفت - هناك بالشـارع - عربة بحجم مركب وعلى شاكلة أوزة، وهبط منها رجل بلمبس حسن يخطـر كأنه يمشى فوق مـاء ودخل حارة افضت بـه الى حارة الى ان بلغ المقهى وقـد ادركـه تعب فجلس وطلب كـوب ينسـون رغبـة منه فى ملاطفة الروح الشعبية · جـاء عباس ورحب واختفى يزعق واقبـل ينقـر على الصينيـة بالملعقـة نقـرات لو سمعتها راقصة طلقت الرقص لعـادت للرقص غير اسفانة · قال الرجل المبتهج وكان غنيـا لعبـاس اترك المقهى وتعالى معى » ، وصرخ عباس انـا ·

ذلك ما حدث « يا اميرى » ولك ان تعجب ، لكنها دنيـا بنت هوى تدير ظهرها لسنين ثـم تقبل بوجه ضاحك وجيد مثقل بالاجراس ·

هنـاك ببيت الغنى تعـلم عباس حروف الهجاء الثمانى

والعشرين ـ هكذا سريعاً ـ لينظم من الحروف العقود من خرز يلونه ليزين عفق ومعصمي ولي نعمته الذى علمه كيف يمسك السكينة بيمينه والشوكة بيسراه ٠هذا-بينما الغنى بحق يتناول افطاره وغداه وعشاه بصحبة عباس بالنادى : لحوم مقلية ولحوم مشوية ٠٠بط وديهوك رومية ونسمك ودجاج وفاكهة ايضا ونبيذ ، وما بين الغداء والعشاء من وقت يقضيانه معا ـ الغنى وعباس ـ بحمام السباحة مع العراة من الرجال والاولاد والنسوة والشابات : ما مر شهران « يا اميرى » حتى تحول عباس الى شخص يجهله كل من عرفه : طبع رقيق ٠٠ واصابع رقت ما شاء الله وصار لها ملمس الحرير ٠٠ بروح شفافة تعشق كل فتاة بشعرمبلول ٠٠ وولع لاحد له بالتصاوير والرسوم والموسيقا وغناء المغنيين ولسينما بحدائق الشرق تعرض الافلام بلون وصوت ٠

هنا « يا اميرى » دعنى احكى لك حكاية فيلم شافه عباس تسع مرات واعجب به الاعجاب كله : ناس عراة يلبسون الريش يسكنون غابة ويقتلون الناس بنبال مسمومة لانهم لا يسكنونمعهم فى الغابة (فجأة) يأتى ناس يلبسون الملابس ويركبونالخيل ويحملون البنادق ويطلقون الرصاص من بنادقهم على العراة ليموتوا جميعا ـ الا كبيرهم صاحب الريش الكثير الذى راوغ الرصاص ونط (فجأة) فوق ظهر حصان اسرع من موتوسيكل واسرع حتى من نعامة ٠ وها هو الوغد (فجأة) يخطف الفتاة الرحيمة التى عالجت

جروح الرجال من النبال المسمومة وطبعت على خد كل منهم قبلة ـ ما عدا الفتى الوسيم فقد اعطته فمها ليشرب منه ماء الحياة لأن جرحه كان قتالا ، وها هو الوسيم يطارد بحصانه لابس الريش الكثير ـ ليرد الفضل لصاحبة الفضل ولكن ما كاد الوسيم يلحق بالوغد حتى سقط حصانه (فجأة) فى حفرة ماكرة ذات عين كبيرة سوداء ، وها هو الوغد يسوق الفتاة كما لو كانت معزة ، لا يدرى عباس ان كان الوغد سيذبحها ام سيحلبها ـ الا ان عباس صرخ فى الوسيم «هنا» واشار عباس الى كهف يختفى خلف مزق الثوب الطويل (فجأة) لنرى كل العيون الراغبة فى الوعد : شجرة انفلقت ـ بعد ان شبت فيها النار الحمراء ـ الى ساقين من جمر ، وصرخ عباس فى الوسيم « اسرع » ، وصرخ فى الفتاة « قاومى » فامسكت هى ببلطة، وتقدم الوغد وواجه الكل بعينى مارد مخيف فقالوا « لا دخل لنا » ، ولكن الفتاة رمز المقاومة لا تزال تمسك بالبلطة : عارية الفخذين ـ ولا ملامة عليها، (فجأة) دخل الوسيم الشجاع وقتل الوغد ـ حتى لا تصير الجميلة قاتلة٠ وانتهى الفيلم ـ يا اميرى ـ بقبلة طويلة تحبب الانسان منا فى الافلام وتجعل كل صناع الافلام ابناء زماننا ينهون افلامهم بالقبل التى تحببنا فى الافلام ، بعد هذا الفيلم ـ وهذا ما جعلنى احكى لك « يا اميرى » حكاية هذا الفيلم : اتقن عباس الحاذق صناعة الكلام ففتل من الكلمات حبالا تصلح لشنق ادمى وربط دابة وتقييد وحش واغلاق طريق ـ كما افلح فى كتابة حكاية مشوقة عن رجال يعاركون

الحيوان المفترس ويهزمونه ويصنعون مـن جلده النعال التى يلبسونها ، ذلك ما كان ، بينما ـ انا ـ سيدى الأمـر نسيت اخبارك بخبر الرجل الغنى الذى يسكن بيتا من اربع طوابق بكل طابق اربع شرفات ، وكـان بالبيت حديقة بهـا شجر لا يثمر واشجار ورد مزهرة تنشر العطـر ، وكان الرجل الغنى يحب مثله فى عفـة. جعلتـه يلبس قناعـا : لا يمس احدا ولا يدع احـدا يمسه ـ فقط يحب ويذبل كما تفعـل زهـرة النرجس المحبة لنفسها وللمـاء . تلك كانت حاله مـع عباس حتى ادركه وادرك عباس اليـوم الذى تحكى من اجله الحكايات وتنشـد الاناشيد ويجن من يجن من بنى الانسان:

كانت بالطابق الرابع للعمارة المقابلة ورآها عباس وقال « يا ايهـا النور » ، فاغلقت هى بـاب الشرفـة وغـابت ، واشرقت فى اليـوم الثانى وكان يوم ثلاثـاء فقـال عباس « يا ايها النور » ومضت وهى غاضبة ولم تغلق باب الشرفة واحتجبت يوم الاربعاء لتطل يوم الخميس وبـدت كمـا لو كانت غاضبة ، ولمـا هم عباس بفتح فمه ادارت ظهـرها وتكـرر هذا منـه ومنهـا ، وفى اليـوم الذى يستريح فيـه المسيحى اطلت بوجـه هو الازاهير ومررت كفها على شفتيها ونثرت فى الهواء زهرتين شـم ريحهما عباس فـداخ وافـاق وطالبها بلقـاء عاجل فى النادى فهزت رأسها رافضة ورمـت على جبينها من شعرها خصلة ، وقال عباس الملهوف « بسينما حدائق الشرق » ـ فرمت هى رأسها الى الخلف رافضـة واعادت خصلة الشعر الى مكانها ، وفتح عباس فمه واغلقـه

ولمـا حركت يدهـا واشارت الى حديقة بيتهم ورسمت الشجر ورسمت الغـروب .

اخ ، ليت اللقاء ما تـم تحت الشجر الذى يشتعل بالنـور اذا ما داهم الغروب بيـوت السـادة ...

اخ ، يا اميرى ، كان الرجل سيدا وكان فاضلا وكان كهـلا احتاط لحماية عرض زوجته الخامسة الحلوة من طيش يتملك نفس كل شابة حلوة ومن ضعف قديم فى طبيعة الانثى ومـن احابيل السفهاء من مثل عباس : سور البيت وحصنه بالحديد والسلك والشجر والاجراس والكلاب السود والطهاة السـود والخدم السـود ...

وكان عند السيد الكهل « اميرى » عصا من العـاج يهش بها وبهـا يجلد ـ تجعل كل من يـراه يخافه فيحترمه ويفسح له الطريق ان كان ماشيا يتريض أو راكبـا عربته التى يسوقهـا سائق بسوط ، هكذا « اميرى » بات من القدر لعباس ان يقع صيدا : يتوجع ويستنجد بالله فى السماء وبرحماء النـاس على الأرض ، حتى قيض الله له ذلك الشرطى فجـره للمخفر سارقا لا عاشقا ، وخرج من المخفـر الى مستشفى يصحبـه شرطى فقـد ثبت انه السارق لا العاشق ، ولمـا طابت جروحه وجـد نفسه حيوانا فى قفص من حديد ورجل هناك خـارج القفص ـ لايعرفه ـ يسبه لرجال جادين بوجـوه صـارمة لبسوا الاسود كالقسس يسمعون من فوق منصة عاليـة

فيهزون ادمغتهم ويهمهمون وكبيرهم امسك بمطرقة قــرع بهـا لمـا تجاوز الرجل الذى يسب عباس الحد فسب ام عباس والحلوانى وصاحب المقهى ، احنى الرجل الشـتام رأسـه وقـال انهم ـ ام عباس والحلوانى وصاحب المقهى ـ زرعوا بذرة الشر السوداء فى نفس عباس ٠٠ فلما مد له السـيد الكريم يـده الكريمة عضهـا عباس فادماها ودمر حيـاة صاحبها الغنى الخير الذى اصيب الآن بصدمة قد تجعله ـ وقـد كان عباس بالنسبة له بمثابة الابن ـ مطيعـا لاوامـر الطب حتى نهاية عمـره : يشرب اللبـن الساخن مخلوطـا بالويسكى وحب الحبهان ٠٠ مطلقـا هو الغنى كل طيبـات الدنيا الزاهرة كمـا يعلم سيدى القاضى وسادتى القضـاة الافاضـل ٠

ومن عجب مولاى الاميـر ـ ان الرجـل الشـتام قص ادق التفاصيل فى حيـاة عباس بمـا يـدلل على نفوذه وسعـة اطلاعه فى الكتب والملفـات السرية الكثيرة التى دونت فيهـا سيرة عباس وغير عباس من بنى الانسان ٠

وبعد « اميرى » وقـد بلغتك سيرة الكل ـ ها اناانهـى على الباقى من سيرة عباس (حمته سنه الصغيرة من عقوبة السجن فهو بعد حدث ـ كما قال القاضى : رغم ما شـاف لا يفقه من امور الدنيـا قـدر خردلة ٠٠ ليوكل شـأنه اذن لاصلاحية تربيه وتهذب روحه وتعيد خلق الانسان فيـه من جديد ٠ تمالك عباس نفسه فلم يصرخ ، سمع الحكم الظـالم

الصـادر من ناس لا يعرفهم بايعاز من رجـل شـتام لا ريب اجور من زوج المحبوبة الجميلة التـى لن ينساها عبـاس ـ فالحب لا يموت هكذا سريعـا ٠٠ كمـا ان مقادير النـاس لاشك ليست بأيديهم فها انت يا عباس الرجل تعامل معاملة طفل لتصير حياتك المقبلة بالاصلاحية بأيدى بشر فى الغالب الاعم كالكل قسـاة لا يرحمون ، ويفرض انهم رحماء فـلا نبيـذ عندهم ولا لحم ولا تصاوير ولا موسيقا ولا شرفـات ولا حمـام ساخن ولا سينما حدائق الشرق تلك التى تعـرض الافلام بلون وصـوت ٠

نعـم ـ لا انت ولا حتى انا كنت اتوقـع تلـك النهايـة الظالمـة لعباس يا اميـرى ٠

(البيـت) :

بمدينة الفسطاط ، من طابقين من حجر ابيض ، بكـل طابق اربع حجرات مرتفعة السقف ، الطابق العلوى للمعيشة، وبالطابق السفلى : حجرة الزاد وحجرة الغلة وحجرة الراحة وحجرة الواجب ـ وتلك حجرة منفية عن سائر الحجـرات وقريبة من المرحاض والحمـام وقـد اعـد تلاستقبال الضيف الرجـل ٠

وهو بيت من بيـوت اشراف ذلك الزمان البعيد ، فى زمن لاحق ملكت مفتاحه ـ بحق المصاهرة ـ سيدة تركية ، وقـد آل بعـد موتهـا الى ورثة سفهاء ـ باعوه لمـا اختلفوا فـى امـر اصلاح درجـه الخشبى الذى يوصل الصاعد من الطـابق الاول الى الطابق الثانى ٠

بابه الكبيـر من خشب الاثل ، يغلق من الخارج بسلسلة متينـة الحلقـات يطبق على طرفيها قفل كبير ، ويغلق مـن الداخل بمتراس ، فاذا ما جـاء القـادم طـرق البـاب بكف

منحدود قابضة على خوخة من حديد مثبتة هناك فوق الباب – ووقف ينتظر ، ومن فرجة بصدر الباب تطل عيون اهل الدار – حتى يستبينوا العدو من الصديق .

كواء الطرابيش :

مالك البيت الجديد ، قبطى مؤمن ، اختار الحياة بمصر العتيقة – بالقرب من بابليون الدير والحصن والرمز والذكرى الحية ، وحول حجرة الضيف الى دكانه ، وعاش بالدور السلفى مع امه العجوز ، ولما ماتت امه لم يطق حياة الوحدة فى البيت الكبير – فاصلح السلم ، وتزوج من قبطية شابة عاش معها بالطابق العلوى حياة سعيدة – وكانت اما لابنه جرجس .

جرجس ولعبة الزمان :

ورث البيت عن ابيه وورث الحرفة ، لكن يد الزمان الخاتل امتدت ورفعت الطربوش عن رأس المسالم وباركت المتزلف ودقت عنق لابس الطربوش (المكابر والعنيد والمتمسك بعهد ولى وفات) ، وها هو جرجس يميل على قميص نوم السيدة المخرم وفستان البنت القصير وقميص رجل البيت العارى الرأس (دنيا غرور كاذبة .. مثل السواقى النادبة)

مرقص مواطن صالح :

مرقص ابن جرجس ووالد حنا – جمع الاحياء من اهله

وخطب فيهم ليقنعهم ببيع الدكانة ركذا حجرات الطابق الارضى ، وقال : انتم ابناء واحفاد كواء الطرابيش .ارغمكم الزمان العاتى على الرضوخ لحكمه .. قولوا معى الحمد لك فى ملكوتك ايها الرب الممتحن فتلك مشيئتك .. خلقت حنا ابننا وحامل اسم اسرتنا لا يحسن العدو ولا يفرق بين التمرة والجمرة .. ولولا عيوننا المحبة الحارسة – نحن اهله – لهام على وجهه وتاه فى زحام الشوارع .. وها انا اليوم بينكم العجوز المحنى الظهر الذى لا طاقة له على العمل .. لكن لا تتركوا اليأس يتمكن من نفوسكم المؤمنة .. واعلموا ان ابننا حنا يصلح للزواج .. وعلينا نحن ابناء واحفاد كواء الطرابيش ان نساعده وننتظر عطاء الرب .. والآن : هلموا يا ابناء الرب وكلوا من طيبات ما احضرت (شرائح لحم الخنزير ولحم الضأن وفاكهة الصيف وشراب العنب والروم البراندى والشموع لتمثال العذراء) .

محمد كمبل الأول :

مالك الطابق الارضى ، السيد الجديد ، بدين ببطن وقلب من البلاستيك ، بعين من زجاج وعين ضيقة مزرورة .. يداريهما بنظارة سوداء كبيرة ، يملك بيتا بباب الشعرية تعيش فيه أم اولاده زبدة مع اهلها واهله ، وله شقة بشارع سليمان باشا الفرنساوى – يحيا فيها مع خليلته الراقصة الكتوم التى عاونته باخلاص فى اعماله « ببيروت » قبل نشوب الحرب الاهلية ، له فى البنوك البعيدة مال

جامد وله فى اسواق البلاد مـال يتحرك ، بماله حول دكانـه الكواء الى بوتيك ميامى ـ حبس الضوء فى اقفاص من زجاج سبحت فى مآئه الملون ثيـاب الانثى الداخليـة وزجاجـات عطرها وعلب زينتهـا وآلات كى شعرهـا الكهربائية وكـذا سيجارتها الامريكية المفضلة « كنت » ذات النكهة الفاخرة

وكيـل الأعمـال :

صباح يوم افتتاح بوتيك ميامى ـ جـاء العمـال ورشـوا الرمل امـام البوتيك ـ وصفوا اكاليل الورد وعلقوا الصـورة وقـد كتب تحتها بخط كبيـر (كبيـر العائلـة بطـلا يوليو ومايـو واكتوبر وكل شهور السنة) .

وفى غروب يوم افتتاح بوتيك ميامى هبط محمـد كميل الثانى من عربة امريكية سوداء وتقـدم ـ تحيط به عصبة من صحبه واتباعه الاشداء ـ وامسـك بالمقص وقص الشريط ، بينمـا المسجل يصدح بالاغنية التى يفضلها محمد كمبل الاول (الطشت قال لى قومى استحمى يا بنت يا ...)

وفى صباح اليـوم التـالى لافتتاح بوتيك ميامى ـ نشرت الصحف الصباحية الثلاث صورة لمحمد كمبل الثـانى وهـو يضحك وقـد احاط به جمع يضحك كمـا نشرت اعلانـا عـن بوتيك ميـامى ـ هذا نصـه : محمـد كمبل اخـوان يبشر المواطنين بمصر القديمة وينقل اعماله من بيروت ويخطو أول خطوة له مع بداية عصر الانفتاح على طريق العلم والايمان .

الأصبع الثالثـة :

لـم محمد كمبل الصغير الملقب بالأصبع الثالثة حبـات سبحته الملونة ودسها فى جيبه ، واخرج منديله ففاح عطـر فرنسى وتمخط وفرك راحتيه واخذ سمت محمد كمبل الأول ـ وقال للرجال الواقفين بجوار الشاحنتين : افرغوا الحمـولة وادخلوها المخازن ـ واشار بأصبعه الى الطـابق الأرضـى للبيـت .

العشاء الأخير والأحد الأخيـر :

منذ رأى حنا المـال وجل اهتمامه بهذا الورق الملون والصور المطبوعة عليه ، أكل مع أهله وشرب بفكـر شارد ـ فلم يفرط كمـا افرطوا ، وسـأل حنا حنا : كيف احصـل على الصرة المدسوسة فوق الدولاب دون ان يرونى ؟ ورد حنا على حنا ـ بعد عنـاء :لما يناموا ، وشعر حنـا بضيق فقام وقعد وقـام وقعـد ـ وقال : ليتهم يناموا ، وكلمـا سمع ضحكات اهلـه وصوت سعالهم وصوت مضغهم ورشفهم ـ احس بأنه يعانى عنـاء يفوق احتماله فطلب من العذراء أم المسيح ان تساعده. هذا بينمـا اهله يأكلون ويشربون ويأكلون ويشربون بشعور المحروم الراغب فى شبع مقيم وشراب مقيم ، حتى اتت عربة الاسعاف الحكومية وحملتهم نصف موتى يمسكون ببطونهم المنفوخـة ـ الى المستشفى الحكومى حيث ماتوا .

حنـا آخـر الأحيـاء :

داس على الزجاجات الفارغة والمليئـة وداس على قراطيس

المانجو وحبات المكمثرى المبعثرة وطلع فوق كرسى ـ وهكذا وجد نفسه فوق الدولاب : ففك الصرة واخرج المال وحشا به جيوب سرواله ، وكان حريصا ـ فلم تقع عليه عين تمثال العذراء ٠

بعد ما عبر حنا الكوبرى ـ قصد السينما التى كثيرا ما حام حول اعلانها الكبير المعلق وكان لنسوة عاريات يهربن ضاحكات من موجة البحر الساخط ٠

وكما جاء حنا ووقف يتطلع ، جاء رجال الشرطة أيضا بعربة الشرطة ـ ووقفوا يتطلعون ، وما ان وقعت عين المخبز السرى على حنا حتى ظنه لرداءة ثوبه واضطراب حاله ـ من الصبية المتسولة ٠ ؟

وهناك فى مكمن الشرطة قلبوا جيوب حنا واخذوا المال غضبا ودسوه فى خزينة الحكومة واغلقوها بمفتاحين ، اما حنا فرموه دامع العينين ليبيت ليلتين مع الفاجر والسارق والمخنث وشارب الكحول والمتباهى بذكورته والشمام ومدمن الابرة ـ فى حجرة ضيقة معتمة رطبة بشقوقها يسكن القمل والنمل والبق والبرغوث والوطواط ، ثم ساقوه دامع العينين وتلك نهاية امره ـ الى دار رعاية واصلاح حكومية ستعلمه الحرفة وحسن التعامل مع مجتمعه الانسانى ٠ ٠

قصص لكل الطيور

ـ وحيدا فى بيتى :

دق بابى ـ ففتحت ، وعجبت ان يكون الطارق جارى الحريص على وحدته ، فصحت : من ٠٠ ؟ وحيد !! وقال هو ـ دون ان يرد السلام : لا تستغرب زيارتى ٠٠ فبينما انا افتش واقلب فى نفسى كعادتى ـ اكتشفت انى لم اضحك منذ زمان ٠٠ ولما حاولت وفشلت ـ شعرت بخوف من نفسى ٠ قلت : سامت يا جارى من كل سوء ٠٠ لكن ما تقوله هو الخطر بعينه ٠٠ هيا بنا الى حكيم من زماننا يقال له عبد البصير ٠

٢ ـ الى عبد البصير :

قابلنا عبد البصير بوجه عبوس ، وقال لوحيد : طبك عندى ٠٠ لكنى اليوم فى اسوأ حال ٠٠ فالضرير زوج الخرساء اختى ـ والدنيا عليمة بمدى حبى لها ـ محبوس وصباح الأحد تجرى محاكمته ٠ فصحت انا : ولم الخوف يا عبد البصير ـ والاستاذ فصيح بيننا ونحن ابرياء ؟

صرخ عبد البصير : بالله عليك لا تذكر اسم زفت الطين هذا امامى ٠٠ لقد طلبت منه ان يترافع ويدفع التهمة عن زوج الخرساء اختى ـ فطالب منى زجاجة كينا ٠٠ ومن اين لى انا والفقراء امثالى بثمن زجاجة الكينا ؟ قلت : حياتى فداك يا عبد البصير ٠٠ لا تشغل بالك ٠٠ انا لها ٠٠ عبالج جارى وبمشيئة الرحمن ستصلك اليوم زجاجة الكينا ٠ قال : لما تحضر زجاجة الكينا سأعالج صاحبك ٠ فعاتبته : الا تثق بى يا عبد البصير ؟ ٠ قال مستنكرا : معاذ الله ٠٠ كيف لا أثق بك ٠٠ لكنى أحسب الحساب ٠٠ ماذا يقول الجار عنى حين يسمع جلجلة الضحكات فى بيتى ـ بينما زوج اختى المنكوبة داخل قفص من حديد ينتظر افظع مصير! قلت ـ وقد طاب خاطرى : صدقت يا عبد البصير ، وقلت لوحيد : تعال معى يا وحيد لنحضر زجاجة الكينا ٠

٣ ـ من أجل زجاجة كينا :

دخلنا دكانة الصيدلى ، وقلت انا للصيدلى : هات زجاجة كينا ، فلما جاء بها اخذتها منه وناولتها لوحيد ، وسألت الصيدلى : كم ثمنها ؟ ٠ قال الريال لا ينقص مليما٠ فلطمت: أفقأ الدمل بريال ؟ قال : وما علاقة الكينا بالدمل ؟ ٠ قلت : بجسمى دمل عمره يوم ٠٠ وقد نصحنى صاحب بشرب زجاجة كينا ، وسألنى الصيدلى : وهل صاحبك عليم بالطب ؟ ٠ قلت : لا ٠٠ صاحبى يبيع العرقسوس ٠٠ ولكن الا تصلح الكينا لفقء دمل ؟٠ قال الصيدلى : لاتخرف٠٠ الدبوس والمرهم يصلحان٠ فصرخت: انجدنى بربك، وسارعت

بخلع ثوبى وقلت : هنا ـ واشرت الى فخذى ، وغمزت لوحيد ـ فهرب بزجاجة الكينا ٠ ولما زعق الصيدلى زعقت انا ـ فالتم الناس ٠ وقال الصيدلى للناس : يا ناس ٠٠ هرب السارق وهذا شريكه ٠ وقلت انا : اخرس يا مأبون ٠٠ لماذا طلبت منى ان اخلع ثوبى ؟ ٠ قال : لأرى الدمل ٠ قلت واين الدمل ؟ ٠ قال بفخذك ٠

فصرخت فيه ٠ يا كاذب ٠٠ يا مفترى ، وكشفت للناس الفخذين ، وقلت : انظروا يا ناس ٠٠ بالله عليكم هل رأيتم الدمل ٠٠ ام رأيتم اليمانى !؟٠

وندبت : قلت للماكر « برأسى صداع » فقال لى انا الذى لا علم له بالطب « اخلع ثوبك » ٠٠٠ ولما هم صرخت لاجمعكم ـ لتشهدوا معى ما صار اليه حال نفر من ناس هذا الزمان ، قلت قولى هذا ـ ورأيت احدهم يخلع نعل الصيدلى ويهوى به على رأس الصيدلى ، كما بصق أخر على وجه الصيدلى ، أما انا فمضيت الى بيت عبد البصير لالحق بوحيد ٠

٤ ـ الضحك يميت القلب :

قال عبد البصير : لو وقع الرجل ـ فما موقفك منه يا وحيد ؟ ٠ رد وحيد : اعاونه على النهوض ٠ قال عبد البصير : ولو كسرت ساقه أو ذراعه ؟ ٠ أجاب وحيد : اصنع له الجبيرة ٠ قال عبد البصير : ولو دقت عنقه؟

قال وحيـد : اترحم عليـه ٠٠ واحفر الحفرة واستر عـورته واواريه ٠ فسأله عبد البصير : هل كان بأمكانك ان تضحك على الرجـل فـى أى صـورة ؟ ٠ قـال وحيـد ٠ حاشا لله ٠٠ كيف اضحك علـى مـن يصيبـه عطب ؟ ٠ قـال عبد البصير : مرحـى مرحـى ذلك شـأن الاصحـاء يا وحيـد ٠٠ أبصق فى عبك يا حبة فى عقد من لؤلؤ نضير، وقال عبد البصير : بنـا الى الاستاذ فصيح ٠ حاول وحيد التملص وقال : ما دمت بعافية وخاليا من المرض ـ فسأعود الى وحدتى ٠ فلامه عبد البصير . وقبض على يده بود : يا رجل٠٠ انت من اليـوم الفرد فى جماعتنا ٠٠ هيا ولا تتلكا ـ فالخير فى الجماعـة ٠

٥ ـ مع الاستاذ فصيح فى بيتـه :

صرخ فينـا : لا تدقوا بابى هكذا ٠٠ كذا الوقت ليل ٠

قلنا : للضرورة احكام يا استاذ فصيح ٠٠

قال : للنهار عيون

قلنا : معنـا زجاجة كينـا

عاتبنا بلطف : ابواب بيوت الفقراء التى نخرها السـوس لا تدق هكذا يا صحاب ٠٠

وفتح الباب ، وخطف منـا زجاجة الكينا ، واعتذر عـن العتمة ـ لما رآنا نتعثر ، وقـال ، بسراجـى زيـت قليـل

احتفظ بـه لليلـة سـوداء ، وفتح طاقـة دخـل منهـا نـور القمـر ، وقعـد فى ركن يجرع من فـم الزجاجة ، ويشد باسنانه جلدة تفرقع كلمـا اخلاها ٠٠٠

وسال : ما قضيتـكم ؟

قال عبد البصير : الضرير زوج اختى الخرساء ـ لما اتـاه غلام صاحب القلعـة ـ ذهب الى الحـداد والنجـار وصـانع الاقفاص من جريـد النخيل ٠٠٠٠ وقال لهم « تنافسوا فـى صنع قفص لكل الطيور ـ فى زمن مقداره سنة ٠٠ والغـالب منكم سيحصل على الف قطعة من النحاس ٠٠ وصاحب القلعة سيهبط بنفسه ليمنح المال ويكلل المنتصر » ٠٠٠ ولما مـرت السنة ـ وكانوا قـد فرغوا من صنع الاقفاص وبانتظار هبوط صاحب القلعـة الذى لم يهبط ـ ذهبوا الى القاضى ورفعـوا صوتهم بالشكوى فمـا كان من القاضى الا ان امـر بالقبض على الضرير زوج الخرساء اختى بنت امى وابى ٠

قال الاستاذ فصيح : لا تقلق يا هـذا ٠٠ سانام بعـد جرعتين ٠٠ وحين يصيح ديك الفجر ايقظنى لاشرب ما بقـى من الزجاجة ٠٠ ثـم امضى معك لاحصل للضرير على البـراءة

٦ ـ يـوم الحسـاب :

دخل القضاة المقنعون ـ فوقفنا ٠ وقعدوا علـى الكراسى ـ

تحت السيف الذى يصارع السيف ـ فقعدنا على الارض . القاعد بالوسط له وجه الاسد ملك الوحوش ، والذي عن يمينه له وجه النمر الوثاب ، اما الذى عن يساره فكان بوجه الثعلب الواسع الحيلة .

ملت على اذن وحيد وهمست : لقد تاه الضرير فى الغابة وعما قليل سنرى لحمه فى فم الحيوان المفترس .. وهذا الفصيح ضل طريقه وضللنا معه بعد ما خدعنا وشرب زجاجة الكينا بمفرده .

قال وحيد : كنت افضل ان ابقى فى بيتى ..

٧ ـ القضية شرم برم :

كشر القضاة الثلاثة فى الضرير المحبوس داخل القفص ـ وزام الاسد : لم غررت بالحداد والنجار وصانع الاقفاص من جريد النخيل ؟ . رد الضرير : لا .. كنت رسولا لصاحب القلعة .. زام الاسد : وهل قابلك صاحب القلعة ؟ . رد الضرير : لا .. ما من حد قابل صاحب القلعة .. لكن غلامه جاء الىخصى وأمرنى ان ابلغ قول صاحب القلعة للحداد والنجار وصانع الاقفاص من جريد النخيل . كشر النمر : لكنك بغير عينين فكيف رأيت الغلام ؟ قال الضرير : زوجتى هى التى رأت .. اما انا فسمعت . زام الاسد : زوجتك رأت .. اما انت فلا .. كيف تقطع اذن

بأن الرسول هو غلام صاحب القلعة ؟ . قال الضرير : زوجتى وصفت لى صورته . زام الاسد : كيف تصف لك صورته وهى خرساء؟. قال الضرير: خرساء نعم.. لكنها تفهمنى وافهمها. انا وهى فى المسرة والضراء شريكان نقتسم الكسرة . كشر الذئب : وما هى أوصاف غلام صاحب القلعة ؟ . أجاب الضرير : صبوح الوجه أمرد .. على خده شامة .. جيده المطوق بعقد من لؤلؤ كأنه جيد يمامة .. بمعصمه سوار منقى الفضة .. وعلى بدنه قميص من حرير أبيض .. والقرط الذهبى يتدلى من اذنه اليسرى .. والكتاب بيمينه .

فعوى الثعلب : تلك العلامات الكل يعرفها عن غلام صاحب القلعة .. والخرساء شريكة للضرير فى التهمة ومكانها داخل القفص لا خارجه .

قبض الحراس على الخرساء المعلقة البصر بالسماء وادخلوها قفص الحديد . وجعر عبد البصير : واختاه . فهب ألاستاذ فصيح وشخط فيه : اخرس يا انت ، وكح وخاطب القضاة (بعد السلام عليكم .. الرحمة نطلبها منكم ـ يا ظل صاحب القلعة على الارض .. ونحتمى بكم من قيظ هذا اليوم ... يقول الفقير الاريب : ما من مخلوق على الارض التى نعرفها يجسر فيدعى كذبا ان غلام صاحب القلعة قد اتاه .. كما أنه ما من مخلوق ممن نعرفهم يجسر ويتنكر فى ثوب غلام صاحب القلعة .. ذاك يقينى .. فصاحب القلعة قوى مهاب طويل اليد شديد العقاب ... باطش لو اصاب

وكلنا تحت القلعة ـ قضاة ورعيـــة ـ الضعـاف المنخورون المرتعدون من برودة الخشبية التى نحن فيهـــا منقوعـون ٠٠ اليس كذلك ؟ هذا سؤالى الذى اطلب جوابه فورا ـ من القضاة ومن الحضور ومن الحداد والنجار وصانع الاقفاص من جريـد النخيـل ؟ ٠

قال القضاة : نعم ٠٠ الأمر كذلك ٠٠ وكلنـا كذلك ٠٠ و أحـد يجسر ٠٠

وقلنا نحن الحضور : نعم ٠٠ لا احـد يجسر ٠٠ ونحـن كذلك ٠٠٠ وكلنـا كذلك ٠٠ نعم ٠٠ نحن الرعيـة مـن بـرد الخشبية نرتجف

وقال صانع الاقفاص من جريد النخيل والحداد والنجار : نعم ٠٠ نحن كذلك ٠٠٠ من ذا الذى يجسر ٠٠

وسالنـا الاستاذ فصيح : والذى يجسر ؟

فهتفنا خلف القضاة : مجنون أو اخرق ٠٠

قال الاستاذ فصيح : ما دام الأمـر كذلك ٠٠ فالضرير والخرساء لم يكذبا لانهما كا لكل لا يجسران ٠٠٠ ويفـرض ان ما زعماه كذبا ـ فهما ينتسبان الى الجنـون والخـرق ـ وهذا يدفع عنهما التهمة ويحيلهما الى المورستان أو الى دار الاصـلاح ٠٠٠٠

زار الأسد : دعونا نتشاور ٠ وساد فى صفوفنا هـــرج ومـرج ٠ وهب عبد البصير ـ وجعر : واختـــاه ٠٠ هـل سيأخذونك الى الخانكة ام سيأخذونك الى دار اصلاح ؟

ـ الاستاذ فصيح يستمر فى مرافعتـــه :

زار الأسد : محكمتنا ليس من اختصاصها محاكمة المجانين أو الخرق ٠٠ لذا يحـال المتهم والمتهمة الى المورستان أو الى دار الاصلاح فهذا من اختصاصهما ٠

قال الاستاذ فصيح : لايا رمز القوة ٠٠ الضرير والخرساء صادقان فى قولهما (ويتمتعان بعقل كامل) فصاحب القلعة ـ الذى يريـد قفصا لكل الطيور ـ كلم غلامه ٠٠ وقد جـــاء الغلام للضرير والخرسان وكلمهما ٠٠ وذهب الضرير بـدوره وبشر النجار والحـداد وصانع الاقفاص من جريد النخيـل ـ بالجائزة التى رصدهـا صاحب القلعـة لمن يصنع القفص لكل الطيور ٠٠٠ وفات العـام ولم يهبط صاحب القلعة ليســلم أيا من الصناع الثلاثة الجائزة ـ فجـاء الطامعون فى مـال صاحب القلعـة واتهموا الضرير بالكذب ٠٠ ولكنهم لو سالوا انفسهم هذا السؤال الواقعى : لم لم يهبط صاحب القلعـــة كمـا وعـــد ؟ ٠٠٠

لو انهم سالوا انفسهم كمـــا ســالت انا نفسى لا تاهم الجواب كمـا اتانى ٠٠٠٠ (ما من احـد حقق الشرط ٠٠٠٠ ما من قفص مهما كبر حجمه يكفى لحبس كل الطيور) ٠٠٠٠

ياه – قفص لكل الطيور ؟ .. يا لكم من سذج طامعين فى مال صاحب القلعة ... ها ها .. لعلمكم – يا من سقطتم فى اول اختبار – هناك طيور الجهات وطيور البحر وطيور النهر وطيور الحقل .. وهناك طيور تسكن البيوت وطيور بنت عشها فى السحاب .... وهناك طيور تبيض ولا تطير .. ومن الطير الجارح والاليف والمغرد .. وبعد لقد ضيعتم وقت المحكمة الغالى وافتريتم على الابرياء .

٩ – الجزاء من جنس العمل :

دوت اكفنا بالتصفيق لمرافعة الاستاذ فصيح البليغة . وانشغل القضاة بالتشاور مع بعضهم . وصرخ النجار فى الاستاذ فصيح : خربت بيتى خرب الله بيتك . وقال صانع الاقفاص : انجدنى يا استاذ من كرب اوقعتنى انت فيه . وقال الحداد : لو تعرضت لمكروه يا استاذ فصيح فستدافع عنى يا حجة اهل زمانك . وقال الاستاذ فصيح : الخراب والمكروه والكرب واقع واقع .. لا تجزعوا .. سادافع عنكم وسأحصل على اتعابى بطريقتى .. ساخذ الاقفاص الثلاثة.. وساستخدمها بالطريقة التى تحلو لى : السرير من حديد لانام عليه .. والطاولة من جريد النخيل .. وما الدولاب الا من عند النجار .. لكن النجار الصفيق اهاننى .. وها انا اطالب بزجاجة كينا طولها شبران وسعتها لتران ...

١٠ – الختام مسك وعنبر :

زار الاسد : الضرير برىء والخرساء بريئة .. والنجار

والحداد وصانع الاقفاص من جريد النخيل مدانون ويستحقون الحبس .

قال الاستاذ فصيح : حضرات القضاة ...

فكشر الذئب – وعوى : ماذا تريد يا بومة ؟ .. خذ الضرير والخرساء واغرب عن وجهنا قبل ان نخلط لحمك بعظمك ...

انحنى الاستاذ فصيح – وقال : حتى تكتمل بهجة المحكمة وبهجتنا – امروا المحابيس بخلع ملابسهم .

مد الثعلب لسانه – وعوى : لك ذلك ..

بكى المحابيس – وقالوا : يا ويلنا ها نحن عراة ، وقالوا للاستاذ فصيح : الم تعدنا – ووعدناك ؟

وكلم الاستاذ فصيح القضاة : ها هم امامكم يا افاضل جلد على عظم ... وان كان ثمة لحم – فهو مر لا يؤكل ... ومن كان هذا بدنه – فدماغه فارغة من المخ ... وانتم يا يا رمز القوة لا شك زاهدون فى تلك الأبدان المرة والأدمغة الفارغة .

هكذا تكلم الفران
من أحلام وحكمة وسر أفعاله

قلب لى الزمان وجهه [illegible] ظهره ـ فر النوم ، وكنت ه
المؤمنين بقــول الحكيــم القديــم : ســافر ففى الاسـ
ســبع فوائــد ـ هكذا يــا اميرى اســتعرت دابــــ
جارى الطيب ، وقصــدت صاحبــى الميســور الحـال الملقب
بابن خلف ـ المقيم ببلدة العين من اعمــال محلـة صروف ،
وهنــاك شــكوت للصــاحب من الفقــر وعـدم النوم ولعنت
الزمان . فخبط ابن خلف على فخده ليرن المـال فى جيوبــه
وضحك ، وقال : لا عليك من الفقــر فهو مرض منتشر .. اما
الارق فميســـور علاجــه . قلت : كيف ؟ . قـــال :
اصبـــر .. واللـــه مـع الصــابرين يا صاحبــى ،
ونادى غلامــه وأمــره باحضار الفران زوج أم أســماء .
وبعـد ساعة من الزمان ـ عـاد الغلام ومعه زوج ام اسـماء
الفران . فلمـا نظرت اليــه ووجدته : ضامر العود .. فاحـم
اللون .. ربعة .. بحاجب مجروح .. على بــدنه قميص
كلــه ثقوب من حـروق .. وقـد تلفـع بخرق كعـادة ابنــاء

الحرفة ، قلت فى نفسى : سبحانك ربى .. تبوح بسرك لا ضعف خلقك .

كلمه ابن خلف : ما تريده من الوان الطعام .. سنامر لك به يا فران .. ولنا شرط .

رد الفران : فول بزيت وفول بسمن وفول بطماطم ـ ذاك مطلبى .. وهات شرطك .

قال ابن خلف : لك على هذا .. وهاك شرطى .. ستقص على ضيفى من تخاريف نومك ويقظتك حتى ينام .. ولن اسمح لك بدخول الحمام .. فاذا ما فشلت يافران امرت خدمى بفتح بطنك واخراج طعامى منها ..

قال الفران : شرطك هين .. وعلاجى ناجع .. والآن عجل بطالب الطعام فبطنى خاوية ، وأشار الفران الى : اما انت فساحكى لك الحلم الاخضر البهيج .. والحلم الازرق المرعب والحلم الابيض الذى لا طعم لـه .

وبسطالفران كفه الخاوية ، وامسك الهواء باصبعين ، وكمن يدس النشوق فى انفه ـ دس الهواء فى انفه وعطس ، وقال : لقيته امام باب الفرن ، ممسكا بلجام بغلة ، رددت عليه السلام فرد ، ولما اعطيته ظهرى ـ نادانى : الى اين يا سيدى ؟ . قلت : الى دار ام اسماء . قال : ولم لا تركب

البغلة ؟ . قلت : لا مال معى يا فتى .. لقد عملت اليوم بثمن الارغفة التى حرقتها . قال : لكن .. تلك بغلتك يا سيدى . فقلت لنفسى : الفتى مجنون أو اخرق .. وعلى العاقل مثلى ان يبتعد أو ينتهز ، وقلت له : ساعدنى على الركوب .. واجعل غايتك درب سعادة ، وقلت نفسى : سأنزل قبل خصى بخصين حتى أضلله فلا يهتدى بعد ذلك الى سكنى . وقال هو : ما الضرورة لدرب سعادة هذا يا سيدى وسيدتى بالبيت تنتظرك ؟ . وقلت انا لنفسى : هم .. سيدته تنتظرنى ؟ ؟ .. لقد بان المستور ـ فهذا الولد تيس لسيدة من علية قوم هذا الزمان تبحث عن فحل من عامة الناس ، وسألته : واين تسكن سيدتك يا فتى ؟ . قال : بحى الحدائق والزهور ياسيدى . فقلت له : ها .. حيث يسكن ابناء العرب وابناء الفرنجة ويختلطون .. ليكن ... انا لها .. خذنى يا فتى الى حى الحدائق والزهور هذا .. ولا تقلقنى بعد الآن بقول.. فانا راغب فى نوم استعيد به عافيتى ، وقلت فى سرى : وهل ينام المشتاق المحروم ؟؟

وامام بيت لطيف منير به حديقة صغيرة بسور وباب من حديد تتسلقه يا سمينة نعسانة ـ هبطت انا من فوق ظهر البغلة بمساعدة الفتى وتقدمت صوب الباب ـ فهب بواب نوبى بثوب نظيف شديد البياض وحيانى ، طوحت راسى ـ كما يفعل السادة ـ ورددت التحية ومرقت من الباب ، وسرت ـ انا المزهو ـ بطرقة قصيرة مرصوفة بحصى ملون حتى قابلنى باب مغلق فطرقته ووقفت انتظر ، والقيت نظرة

عن يمينى ونظرة عن شمالى ـ وهالنى ان رأيت اسديق رابضين وعيونهما على ـ فنطقت بالشهادتين ، ولما سمعت صوت صفارتين ورأيت الاسدين يغمزان لى بعيونهما بضوء ملون ادركت انهما لعبتان ـ فبصقت فى عبى وشكرت الله · ومن فرجة الباب اطل غلام امرد كأنه بدر السما انحنى وتنحى · فمرقت انا وتحت الثريا وقفت واغلقت عينى لاحميهما من قسوة الضوء . ولما سمعت صوت خطوات فتحتهما فاذا به امامى بشارب مفتول وعلى رأسه طرطور ·· يمسح دموع عينيه بمنديل ، فقلت ـ وقد الهمنى الله ما قلته : انت الباشا رب الدار ··· وقد حلت بأهل بيتك مصيبة لم تكن فى الحسبان ·· على اية حال انا حزين وانا لله وانا اليه راجعون ··

انا يا باشا راجع ·· سافارقكم توا لكنى تحت امركم فى أى وقت ترونه مناسبا ولا مقام فيه لمرض أو موت ·

ضحك لابس الطرطور ـ وقال : انت خفيف الدم يا سيدى وهذا طالع طيب ·· لقد جعلتنى انا الذى تعرضت لاشد الوان الاهانات فى حياتى ـ اضحك · قلت له : لا تهتم ·· فالدنيا دون والناس دون والزمان دون · انتقض كالملسوع وسقط من فوق راسه الطرطور ـ وتهته : عفوا يا سيدى ·· لم اقصد هذا ·· كل ما فى الامر ·· بل كل الامر ·· وذاك قصدى ·· نعم ·· هذا بالتمام والكمال ما اود ان اقوله·· لقد منعتنى سيدتى من طهو وجبة العشاء لك ولها وللمحروسة الصغيرة اطال الله عمرها ·· ولكن لو لم تفارق سيدتى

المطبخ فورا يا سيدى ـ فسأفارق انا البيت حالا ·· لأنى احترم مهنتى يا سيدى · فصرخت فيه : لا يا طباخ ·· لا بربك ·· لا تنزع قلبى من موضعه ·· تعال وارنى سيدتك وانا كفيل باقناعها وستغادر المطبخ باذن الله ·· فانا قادر على اطفاء نارها ولهذا اتيت ، وقلت لنفسى : سأجعلها ترى الخيزرانة ·

وهناك بالمطبخ وجدت ، يالدهشتى ، من ؟ يارب السموات هل انا بحلم ؟ ، كانها أم اسماء ، نعم ، تلك هى ام اسماء قاعدة وبحجرها اسماء تلعب فى كوم لحم وكوم قمح ـ وقد تدلى من انفها على فمها خيطان من مخاط ، نعم تلك هى تدق الهاون ، وها هى ام اسماء أمامى تلوك قطعة لحم نيئة ، ضربت جبهتى بيدى ـ لأن اختلاط الامور ليس بالامر المحمود وسالت لابس الطرطور ـ لاقطع الشك باليقين :وأين سيدتك ؟· قال ـ وانحنى : ها هى امامى يا سيدى بهية النور ·

فقلت له : انصرف وانتظر بعيدا ، وخاطبت القاعدة بأدب حتى يستبين لى الامر : لم يا ام اسماء تمنعين الطاهى الماهر من طبخ طعام لنا ؟ · ردت المشئومة : لا تحاول معى ·· لن افارق المطبخ ما حييت ·· وها انت ترانى ادق القمح واللحم فى الهاون لاطبخ لك كفتة · فقلت : انت ام اسماء اذن · زعقت : ومن تظن ؟ ·· أم بعرة ؟؟ · سألتها ـ لافهم منها مغزى ذلك الذى يجرى : وهل لك جدة تركية ماتت باسطنبول ـ فورثناها ؟ · قالت : لم وولى النعم

صاحب الأمر العادل ـ اطال الله عمره ـ خيرنا بين حياتين ولقد اخترت انا تلك الحياة لى ولك ولأسماء صانها الله من كل سوء ‥ سنقضى بقية عمرنا نأكل الكفتة يا زوجى الغالى ‥ وبعد الا تستحق ام اسماء منك كلمة حمد ٠ بعد هذا القول ارتاح خاطرى ، وناديت الطاهى وامرته : دع ام اسماء على حالها تطبخ لنفسها ما تشاء ‥ اما انا فاطبخ لى قرع كوسة باللحم المفروم وقرعا عسليا باللحم المبروم ‥ ولحما خالصا ببصل وبفلفل وبثوم ‥ وعجل بربك يا طباخ ٠ وبالبهو قعدت على كرسى مغمض العينين ـ افكر واطرد كل وسواس خبيث ، ورغم ليونة الكرسى وطراوة قاعدته ـ الا انى كنت كالقاعد على جمر ، وكلمت نفسى : لتظل ام اسماء بالمطبخ ـ هذا فيما لو استمرت تلك الحياة ـ تدق الكفتة وتطبخ الكفتة وتعيش ما بقى لها من أيام راضية سعيدة ‥ اما انا رب هذى الدار وصاحب هذى الدار فسأتزوج من ثلاث كما أحل الدين الاسلامى الحنيف : شامية ومغربية وبنت بلد مصرية لها لون المهلبية وطعم المهلبية وطراوة المهلبية ٠

وايقظنى الغلام الامرد من شرودى الحلو ـ وقال ان التليفون يطلبنى انا سيده ٠ فقلت له : وأين هو ؟ خذنى اليه أو قل له تعال ٠ قال الفتى : هالك يا سيدى ، وارشدنى فقال : من تلك الفتحة تكلم يا سيدى ومن تلك الفتحة يا سيدى استمع ٠ ومن الفتحة قلت لمكلمى : من انت ؟ ٠ قال زعبوط الخياط ٠ فسألته : ماذا تريد يا زعبوط ؟ ٠ قال : هل احضر لا خيط لك

ثوبا ؟ ٠ قلت له : وتسألنى يا زعبوط ؟؟ ٠ والله ان امرك لعجيب ‥ ما الذى منعك عنى طوال تلك السنين يا زعبوط ؟ احضر ثوبا يا رجل ولا تضيع وقتا ٠ ومن فتحة التليفون العجيب ـ كلمنى مسمار الجزمجى ـ فقلت له : تعال يا مسمار وعجل ‥ اما كنت تعرف يا مسمار ان قدمى الحافية يلزمها حذاء ؟؟ ‥ باليقين أريده بلون اصفر يا مسمار ٠ ولما اتصل بى رقاق صانع الفطيرة المالحة والفطيرة الحلوة ودعانى الى حفلة سيخاصر فيها الرجل الانثى ويرقصان ٠ قلت له : لا مانع عندى يا رفاق ، ولقت له : لا مانع عندى البتة ‥ سأحضر ، وسألته : ما الذى حدث فى الكون يا رفاق ؟ وكيف كان ذلك ومتى تم ؟

قال : ما حدث حدث ولا فائدة من التفكير فى الايام السوداء التى ولت وما كان كان وهو خير ‥ وكل ذلك تم فى يسر كانفصال الخيطين وقت الفجر ٠ قلت له : هذا بينما كنت انا الغافل امام نار الفرن بمخبز اسرافيل ؟؟ ‥ لقد اجبرنى الظالم على العمل بغير اجر نظير ما حرقت من ارغفة ‥ تخيل معى هذا يا رقاق ‥ والآن اريد ان اغير حرفتى يا صاحبى ـ فهى والله مهلكة ٠ واتانى صوت رقاق كأنه الصراخ : لا يا فران ‥ لا تفعل ‥ هذا غير ممكن ‥ كل منا فى مكانه يخدم الاخر ‥ انت تعمل من اجل الغير والغير يعمل من اجلك ذلك هو الشرط الاوحد لولى امرنا ‥ ماذا تريد بربك ؟ ‥ ما الذى تريده بنا ؟ ‥ لا تفسد حياتنا الجديدة يا فران ‥ ارجوك ٠ قلت له : لا نقلق ‥

هذا يكفى يا رقاق .. لكنى لا احسن الرقص . قال : لا تشغل البال بمثل تلك الامور .. هذا هين .. هنا معلم رقص يعلمك الرقص ـ وما عليك الا ان تحضر قبل الموعد بوقت .. سلاما قلت : سلاما يا رقاق .. سلاما . وناديت الغلام الامرد ـ وسألته : اين الطعام ؟ . قال هنـاك .. ينتظر الاكلين ، واشار الى حجرة ـ دخلتها فوجدت طاولة فوقها اطباق تبخر ولها رائحة طيبة تسيل اللعاب ، وهجمت على اللحم هجمة ، وباليدين اطبقت على فخذة ، وفصلت العظم عن اللحم بضربة ، ومزقت بأسنانى ما استطعت ، وفتقت بأصابعى ما امكننى ، ورفعت طبق القرع كوسة الساخن ودلقته فى حلقى ـ فكوتنى ناره ـ وجرى اللهب فى بلعومى وايقظنى من حلم عزيز اود لو يتحقق أو يتكرر .

فكرت فى قوله ساعة . ولف هو الفران ـ من الوهم ـ سيجارة ، ودخنها بشهقة طويلة ، وطرد الدخان الوهمى عن رئتيه بزفرة طويلة ـ وكح . فعزمت عليه بسيجارة مرسوم عليها الغزالة ـ وقلت : هذا صنف رخيص ادخنه أنا بعد الفقر الذى حل بى .. وبمقدورك يا فران ان تدخن منه كل يوم علبة ـ تعوضك عن تدخين الوهم ونفخ الهواء . قال : انا لا اجد ما اكله يا حكيم الزمان ـ فكيف بالله ادخن ؟ تلك هى الأولى .. أما الثانية ـ فخذ .. اليوم تهبنى انت سيجارة وبالغد لن اجدك .. وهكذا تسلمنى لاخر والاخر يسلمنى لاخر .. وتدور الدورة واتحول انا الفران ـ على يديك وبفضلك ـ الى شحاذ .. والثالثة يا اخا العرب ـ ان من

لا يأكل يموت .. أما الذى لا يدخن فلا يموت .. والرابعة ولا مقام لها هنا ـ اقولها لك رغبة منى فى ابعادك عن كل حماقة فى القول أو فى الفهم .. وانا بالفرن اعجن الدقيق واخبز الارغفة وادحوها واقف امام النار واحصل على اجرى القليل من اسرافيل بخناق .. وانا هنا معالج ـ احصل على اجرى برضاى طعاما رخيصا .. والان اسمعنى ـ شفاك الله .

قال الفران : طردنى صاحب الفن وحرمنى من اجرى ـ لانى حرقت الارغفة ، لعنة الله على صاحب الفرن ولعنة الله على الاسباب ، كنت واقفا امام عين الفرن عريانا فى مواجهة النار ، وتحت قسوة الوهج لعنت واقعى وقلت : جهنم ارحم وسرحت بفكرى ـ فوجدتنى امشى فى طريق معبد على جانبيه اشجار الكافور التى ترمى بالظل اللين ـ حتى بلغت الميدان الواسع وهناك وجدت جمعا هائلا من الناس ـ فداخلنى الشك انى بيوم الحشر ، وسألت جارى ـ فلكزنى فى جنبى وقال : هس ، ولما نفخ شخص ـ على رأسه ريشة ـ فى نفير اقبل الرجال على صهوات الخيل وترجل سيدهم فحملوه على محفة ، وطلعوا به درجات النصب التذكارى ، بعدها نادى المنادى ـ وقال : السيد الكبير ملك الجاز والغاز لابس القبعة الكبيرة المرشوق بها ريشة نعامة والمتحلى بالحلى والاساور وعظام البشر ـ قال : سأدفع ألف جنيه لمن يحل اللغز ، وتقدم رجل اصلع علق برقبته فوطة ـ وزعق : ما الذى يمشى فى الصباح على اربع

وفى الظهيرة على اثنتين ٠٠ وعلى ثلاث اذا ما هبط المساء ؟ ؛
هــنا صرخت إنا ـ ودفعت كل من حولى باليدين (الانسان)
٠٠٠ وهكذا بضربة حظكسبت انا الألف جنيه،واحاط بى الخلق
بعضهم يمسـح بكفه على كتفى ٠٠ وبعضهم يطمع فى مالى
الكثير ٠٠ ومنهم الحاسـد والمادح والنتاش وسـارق الكحل
من العين ٠٠ ومنهم ذلك الذى سألنى : ماذا ستفعل بمالك ؟٠
فرددت عليه فى الحال : لن افعل كمـا فعل ابن بلدتى الصعيدى
المنحوس ـ الذى اشترى ميدان العتبة الخضراء ٠٠ ساشترى
الطعــام الذى يكفينـى لمـدة عامين ٠٠ وأولـى وجهــى
نحو الجبل المقطم ٠٠ وأزرع شجرة احتمى بظلها ٠٠ والحجـر
الكبير بأزميلى ـ سأهذب جوافيه واخلق منه هرما صغيرا
بقمة وقاعدة وسرداب وباب ٠٠ بعـد ذلك استريح واقعـد
تحت ظل الشجرة على دكـة **بغدادية** فوقهـا فروة من خـراف
برقة ٠٠ وارمى على كتفى شالا دمشقيا بشراشيب ٠٠ والـم
بدنى تحت عباءة من جوخ مراكش ٠٠ وهكذا اجمع النقـود من
السياح هواة الفرجـة على الاهرامات ، جلجل سائلى وشنشل
والكزنى ـ شلت يده ـ لكزة ايقظتنى من حلمى السعيد واعادتنى
الى واقعى المرير بمخبز اسرافيل ٠

قال الفـران :

ولمـا حكيت حلمى لام اسماء زوجتى ـ قالت : يا لك مــن
صعيدى منحوس ٠٠ لا يحسن اختيار معارفـة ولا يعـرف
الاقتصاد فى كلامه ٠٠ كنـا سنقضى بقيـة ايامنا فى نعيم

يا رجل ٠٠ نأكل فى كل وجبة سمك السالمون المملح ٠٠ ولكان
حلونا دومـا عسـلا اسود بطحينة ٠

شردت ساعة وافقت على كلام الفران وكـان قـد رسـم
على الارض بعود : الكلب والكلبة والجرو والعظمة ٠ قال : فى
الربيع تصـاب عيونه برمـد الربيع ـ فيرفضه اصحـاب
الافران لانه يحرق الرغفان ٠ وذات يـوم من ايام الربيع ،
قالت ام اسماء لزوجها الفران : ما الحل ؟ وما من صاحب فرن
يقبلك عنده هذا بينما انا جاد على عظم ٠٠ والصغيرة السمراء
لا تجد بالقربتين اللبن ٠٠ **ما رأيك لـو خدمت أنا ببيـوت
الأغنياء ؟** ٠ فصرخ الفران فى وجهها : **لا يا ام اسماء ٠٠ حرة
العرب تجوع ولا تأكل بثدييها** ، وقال لنفسـه : نـم يـا
رجل ٠٠٠٠ وادخل عيـادة طبيب وعالج عينيك ، وقال : لما
نمت ـ توجهت الى عيـادة طبيب عيـون يقال له « خير الله »
وجـاء خير الله بوجه هاش باش ومعطف ابيض ، وقـال
لى ـ بعـد ما فحصنى سأصنع لعينيك عوينات من زجــاج
ملون تحميها من ضوء الشمس ووهج نار الفـرن ٠ قلت له :
اشكرك ، وسألته : ومتى يتـم ذلك ؟ ٠ قال : تعال بعـد
ساعة من الزمان أو ابعث برسول ٠ فصحوت من النوم وقلت
لام اسماء ـ ورسمت لها الطريق الى عيادة خير الله طبيـب
العيون : قولى له : انا زوجـة صاحبك الفران المريض ٠٠
اتيت فى الميعـاد لاخذ عويناته الملونة ٠ وحملت ام اسـماء
على كتفها اسماء ومضت٠وقلت انا لنفسى : والآن ٠٠ ما الذى
ستفعله يا فران ـ حتى تعود ام اسماء ؟ ٠٠ كيف تقضــى

الوقت وحـدك فى مكان هو القبر ؟ • وقلت : حاور ايام الخراء بالنوم والفســاء ، ونمت ـ وذهبت الى كازينو يطل على النيل وقعدت على كرسى تحت خميلة ـ بانتظار عودة ام اسماء من عند خير الله طبيب العيون • ومرت امامى واحدة فى مشــيها ميل ورقص ـ يفوح من بدنها وثوبهـا عطـر ، وجلست بقربى تحت الخميلة التى تلاصق خميلتى • واغرانى بمغازلتها انها تقعـد وحيدة ، وفكـرت فى كلام حلولين لـه طلاوة الشـعر، وارتجلت تلك الابيـــات :

انـــت فـى اليـــم ســفينة
يـــا طـــرية كالعجيبـــــة
يـــا حـــلاوة فـى حــــلاوة
انـت ملبــــن يـا ســمينة
يـــا مليحـــــة بخفــــر
هـــات خـــدك انتصــــر
يـــا طحينـــــة بعســــل
بعـــد قبلـــــة نتصــــل

قلت قولى وانتظرت • فاقبل شاب كانه الغيمة ورفعنــى من فوق الكرسى رفعـا ـ كاننى كـرة اللعب ، وبصق فــى وجهى ، واقعدنى مـرة اخـرى على الكرسى • فى هذا الوقت وصلت ام اسماء ـ فأمسكت بتلابيب الشاب وصرخت • والتم ناس • وقامت البنت ـ التى كنت اعنيها بشعرى واتجهت نحــونا •

وقلت انا لام اسماء : اين نظارتى الملونة ؟ • قالت : معى قلت : هاتيها حتى لا تنكسر • قالت : خذ • قلت : دمت لـى يا ام اسماء زوجـة صالحة ••• لا تفلتى الشاب من يديك •• ولا تكفى عن الصراخ حتى يفصل الناس بيننـا ، وقلت للناس يا ناس •• لقد اهاننى انا العجوز المريض ، ووضعت نظارتى الملونة على عينى ـ لامتع البصر برؤية فاتنتى الشابة واقرأ تفاصيلها ، ولمـا دنت وقرأت ـ صرخت : هـذا مستحيل • على صرختى انتبهت أم اسماء ، ورأت وصرخت صرخة عظيمة ارتج لها الكازينو ، وسقطت مغشيا عليهـا • ولطمت انـا خدودى امـام الناس ـ وقلت : يا للعار •• اسماء بنتى انـا تجلس مع شاب غريب تحت خميلة بكازينو • ولما هم الشاب بمعاونة زوجتى على القيـام من سقطتها ـ صرخت انا فيـه : لا تلمس عرض اشراف العرب يا عديم الحياء والذمة يا سافل، وتقدمت ورششت الميـاه على وجه ام اسماء فافاقت ، وقلت لهـا : هيا بنـا من هنـا فتلك اماكن لا يرتادهـا الا اوباش الناس •• وخذى البنت ولا تحدثيها عن الـذى جرى حتـى نتوقى فضيحـة يتحدث بها الراكب مع الماشى والقاعد مـع الـواقف •

هكذا عـدنا الى البيت فى صمت • وفى البيت ـ منعنـى الخجل من النظر الى اسماء التى غازلتها بالكازينو ـ فقلت لنفسى نــم •• فالنـــوم خير حل لمـا انت بــه ، ونمت ومن نومى ايقظتنــى ام اسماء ـ وهى تبكى وتتوجع : انت رجل لا امان لـه • سقط قلبى من بين ضلوعى ـ وقلت : يا امرأة لا تصدقى

صرخت : كيف لا اصدق وقد عرضتني للاهانة والم البدن ٠٠ صاحبك طبيب العيون طردني ٠٠ وتمرجي صاحبك طبيب العيون لكزني فى جنبى وركلني على مؤخرتي ٠ قلت لها ـ وحمدت الله : اقعدى يا ام اسماء ٠٠ واحمدى الله معى يا امرأة ٠٠ لقد اختلط على الحلم بالواقع ، وحكيت لها ما جرى وما كان بالكازينو ٠

فقالت : ولكن اسماء يا رجل بنت شهرين ومعها ملاك بجناحين يحرسها ٠٠ وهى على كتفى كل الوقت ٠٠ لم تغادرنى الى كازينو او خلافه ٠ قلت لها : والله لو فعلتها فى يوم لاذبحنها ما تذبح البهيمة ـ **فانا رجل عربى محافظ احمى التقاليد واصونها ما عشت ٠**

فردت ـ بنت الازقة : **خيبك الله يا عربى** ٠٠ ومن تكون تلك التى غازلتها فى الاحلام ؟؟ ٠٠ ولعلمك ـ ياقنطار خشب ويا درهم حلاوة ـ انى من اليوم ساخدم فى بيوت الاغنياء حتى لانهلك من الجوع ٠

صحوت ـ يا اميرى ـ على هزة من يد ابن خلف وهو يقول : قم يا رجل ٠٠ نحن بالضحى ٠ ففركت عينى ـ غير مصدق اننى نمت ، لكن الشمس كانت فوقى بعيدة عن سماء الشرق قدر ذراعين ٠ وقال ابن خلف والآن ٠٠ قل لى ـ ما ريك فى طب الفران ؟ ٠ قلت : والله ٠٠ لقد جعلنى افكر ساعة واشرد ساعة وانام أنا المفلس ـ على حدب وكره ٠٠ وها انا فى يقظتى ـ ككل الفقراء ـ اطمع فى الحصول على الجرة الذهبية ٠

حكاية للأمير عنوانها : من يعلق الجرس ؟

هذا نور مأتم يا اميرى ، لقد مات الرجل الغنى اليوم والليلة سأقطف لك من حياته الثمرة المرة والثمرة الحلوة فقد تنام ٠

يوم حفظ كتاب الله :

علقت أمه فى أذنه المخرومة خرزة زرقاء ، وقالت « من شر عين الحاسدة والحاسد » ورشت أرض البيت بالملح ٠ ولما جاء الرجال بالصرة فكت أمه الصرة وقالت « من مال المسلمين » ونثرت ما فيها امام عيون النسوة : الجبة حمراء مطرزة بالقصب ، والطربوش مغربى أحمر والمداس الاصفر من جلد الجمل ، والحزام اخضر والقفطان الابيض بخطوط سوداء ٠

ولما لبس صابر ـ وهذا اسمه ـ ملابس الشيخ وهم

بالخروج مع الرجـال قبلت امـه يــده وقالت « يا مولانا » ومسحت دموع الفرحـة بطرحتها السوداء ٠

فى جامـع عبد الله :

ركـع صابر ركعتين وشكر ربـه ، وقـام ، وقبل يـد مولاه ومعلمـه الشيخ سليمان ، وتسلم من يمينه السيف الخشبى وتقـدم ـ هو الصغير ـ جمع الرجـال ليطوف بهـم دروب القــرية ٠

فى بيـت امــه وابيــــه :

ازاح صحن البصارة وقـال لامه « شبعان يا امى » وحط يـده على خـده وفكـر : لن اركب قطار الحديد ، ولن تنظـر العين مصر أم الدنيـا التى يجرى فـوق أرضهـا الترمواى ، ولن تدخل الازهريا صابر وتعيش عيشة المجاورين وتصاحب أبناء الشـام وعرب المغـرب ، وسـأل صابر ربه :لـم يــارب خلقت أبى حارس حقول واجران الغير يهش الطير عـن الحب بمقـلاع ؟

وفى بيـت أمـه وابيــــه :

قال لامه « جوعان يا أمـى » ورفع يـده من على خـــده وفكـر : لا فائـدة يا ولد من لبس أجنحـة الطيـر مـا دمت تملك ثوب الشيوخ ، أنت تحفظ كتـاب الله وصوتك لا عيب

فيه وكلام الله حلو لمـا يرتل وكلام الله يليق بالمآتم ويليـق بالاعراس ، كن ابن يومك يا صابر ولا تعانـد زمانك ، احبس نفسك فى قريتك وانشد القرآن ورتله فى افراحها ومآتمهـا ، ولمـا يتوفـر لك المـال اشتر الدابـة واركبهـا ، ورتـل القرآن فى مآتـم وافـراح النجـوع البعيـدة ومن يقنـع اليـوم ببصـلة فسـيأكل فى الغـد اللقمة مغموسـة بالعسل ومن يقنع اليـوم ببيضـة فسيأكل فى يوم بطـة ٠

الأم الحاقـدة ـ ذات الفصول ـ لا أمان لهـا :

جاء اليوم البارد فمزق حبلين من حبـال صوت الشـيخ صابر ٠٠

وجـاء اليـوم الماطر فقطع حبلين من حبال صوت الشـيخ صابر وشرخ القصبـة ٠

خلص الشـيخ صـابر بقايـا اللحـم من بيـن اسـنانه بعيدان الكبريت ، وقـال : حين تضعف همـة الانسان تقبل الفكـرة السوداء وتنهش روحه ليظل قعيـد البيت كعجائز النسـوة ٠

وفى يـوم سبت طلع على الناس بثوب العـارف :

قال : لكل مرض علة ولكل علة سبب ٠٠ هناك يا اخوتى داء لايقتله الا الكى بالنـار ٠٠٠ وهنـاك مرض لا يفيـد فيه

شراب يبيعه الصيادلة . كما ان العلاج بالعشب لا يتقنه الا انا الخبير بخلط الاعشاب .. اما النمل الاسود فطرده من البيوت سهل لو كتبت انا آية من آيات الله على ورقة بحجم اصبعى - ولصقتها انت بعجينة على باب دارك .. كذا انا قادر على طرد الجنى ومص سم العقرب .. وانا ارفع الخوف من كل نفس خوافة قابلها العفريت فى ليلة معتمة يا أهل قريتى وناسى لا خوف عليكم من لدغة الثعبان وقرصة البرغوث .

ولما خبرته النجوم بيوم سعده :

دخل السوق . وقصد مجلس الشمردلى شيخ تجار السمك ورد السلام . رد الشمردلى على السلام بسلام افضل من السلام وقام وصافح الضيف الغريب واجلسه بجواره على الدكة فوق الفروة وطلب له قهوة ونارجيلة وساله عن غايته . قال صابر : الخير كل الخير .. بكم تبيع السمك وبكم تشتريه؟ . قال الشمردلى : اشترى القنطار بنصف فضة وابيعه بواحد فضة . قال صابر : انا ابيعلك القنطارين بنصف فضة .. كم قنطارا تشترى ؟ . رد الشمردلى : ما عندك . قال صابر : عندى الكثير . قال الشمردلى : اشترى منك نصف حاجة السوق .. قل عشرة قناطير . قال الشيخ صابر : الناس تقول (الذى اوله شرط اخره نور) وانا اقول لك يا شيخ (هات نصف الثمن فوراً .. وانفذ انا اتفاقى بعد يومين والعقد على رقبتى سيف) . قال شيخ السماكين : موافق ومالى حاضر . قال صابر : على بركة الله هات الشهود والموثق .

وهذا نص الاتفاق - يا أميرى :

على بركة الله نشهد نحن الشهود ان شيخ العرب صابر بن فلان من فلانة سيبيع كل عشرة قناطير من السمك الطيب لشيخ السماكين الشمردلى بن فلان من فلانة بسعر القنطار ثمن الفضة والعقد قائم لمدة شهر قمرى وقابل للتجديد لو رضى البائع والمشترك ..وبموجب هذا العقد يدفع الشارى فورا للبائع نصف الثمن فضة ، والعقد نافذ المفعول من بعد طلوع شمسين ، والعقد على رقبة البائع سيف .

الكلام الازرق :

قالت الام : بعت الهواء يا ولدى وقبضت الفضة .

رد صابر : بعت السمك يا امى ومن يبيع الهواء لا يقبض الفضة .

قالت الام بعت ما لا تملك يا ولدى .

قال صابر : السمك فى الماء يا امى .

قالت الام : لكنك لا تملك سمك الماء يا ولدى .

وسألها صابر : ومن يملك سمك الماء يا امى .

قالت الأم : لا احد يا ولدى لا احد .

قال صابر لامه : صرر المـال تحت حزامى ·· ادخل حـارة النجارين فيصنع لى النجار القـارب من خشب التوت وانـــا اشتريها ، وابحث عن صياد قليل النط كثير الصيد وأقـول لـه اركب القارب وارم شبكتك فى الماء ولم السمك من المـاء وكومه على الشط وخـذ اجـرة يومك منى ، والحمال لو رفـع السمك وحطـه فـوق العربـة سأدفع لـه انا اجرة بدنه وعرق جبينه ، كـذا الحوذى سيأخذ اجـره منى لمـا ينقل السمك من شط النهر الى السوق ، هكذا افى بشرطى يا امى وارفـع السيف عن رقبتى ·

قالت الام : حفظ الله عقلك يا ولدى ··

حديث الثعلب وبكـاء النواطير :

مـر الشهر وقال صابر للشمردلى (نجدد العقـد) ومـر بعـد الشهر شهر وشهر واشترى صابر القارب ومـر شهر وشهر وشهر واشترى صابر القاربين وقال : للشمردلى (انا لا ارغب فى تجـديد العقـد) ، سأله الشمردلى (لماذا) قال صابر (العقـد ظلمنى يا شمردلى نكتب العقد الجديـد ـ وتقنع انت بنصف ما تكسب اليـوم) ، وكان صابر كلمـا مـر شهر وشهر يشترى قارب صيـد ، وينادى الصياد الذى يحمل الشبكة على كتفه ويقـول لـه (اطلع فوق القارب فهذا افضل من مشيك على الشطوط بقدميك) ، بعـد عـام ونصف عـام قـال صابر للشمردلى (اقتنع بربع ما تكسب يا شمردلى) ، قـال الشمردلى (ما الذى غيرك يا رجل ؟) ،

قال صابر (كن قنوعـا يا صاحبى فانت تكسب دون ان تقوم من دكتك) ، بعـد عـام فسخ صابر العقـد بينـه وبيـن الشمردلى ، ولمـا بـاع الشمردلى السمك بالسعر الذى يبيـع صابر اقتسما السـوق ، لكن صابر خفض سعر السـمك وخفضه فهرب المشترى من الشمردلى وهرب الشمردلى مـن السـوق بمـا تبقى معـه من مـال وقضى بقيـة عمـره فـى خمـارة صاحبها مانطى ·

هكذا بقى صابر فى السوق بغير منافس واحتكر بيع السمك :

اشترى قارب الصيـد لكل صياد يروح على الشط بقدمين وفوق كتفه شبكة ، وحذر الصيادين من صيد السمك الصغير وقال لهم (السمكة الصغيرة اليـوم هى حوت الغـد) ·

وبـدل الموازين وامـر المنـادى بأن ينادى فى الســوق (البيع من صباح الغـد بالكيلو لا بالاقة) ، وجـاء بمصنف خبير بأنواع السمك ومنحه الاجر الكبير وقال له (قيـم انواع السمك واختر لكل نـوع من السمك الاسم وحـدد السعر فالناس عبيـد وسـادة وكذا السمك ايضا) ·

وقال صابر لرجاله :

(اطرحوا نصف حاجة السوق من السـمك الحى والباقـى ملحـوه ·· بذلك نرفع سعر السمك الحى ، ونحـدد نحـن سعر السمك الملح) ·

وقـال صابر لنفسـه :
(ها انا بعقلى الراجح احكم السوق بقلب الاسـد ملـك الحيـوان) .

حديث صابر مع الزمان :

اطل صابر من شرفة قصره وكلم الزمان :

● ملك السمك الحى والسمك المملح (عجوز)

● خالق الزحمة بالاسواق (وحيد)

● مالى يحـرك القارب والصياد والحمال والحوذى والعـربة والبغل والحمار وريشة الرسام (وانا جامد) .

● عربتى يجرها حصان ابيض وحصان أسود (واياممـى يجرها ليـل أسـود ونهار أبيض الى المقبرة) .

● يفسحون الطريق لى انا الملك حامل السوط (وانا راحـل وهم باقـون) .

● كمـا يرقـد المـال فى خزائنى سأرقد (باردا كالفضة)

● يا ايهـا الزمان انت الوحيـد الذى لـم اهزمه (كانـك انت الملك) .

● بذهبى ساشترى اجمل بناتك ايها الزمان لتلبس بعدى ثـوب الحـداد . وتنفـخ بطنهـا من أى ابن زانيـة هذا فيما لـو عجـزت انا وعزائى ان تظـل السنة النـار مشـتعلة بالأسواق تحدث الآتين بخبرى .

كنت بزيارة صديقى ، وكـان استاذا ، وهناك التقينـا ، فقلت لنفسى .. أخ .. تلك فتاتك الموعودة .

وكانت هى تكلم الاستاذ وتسمع منه وتضحك وتميـل لقـدام فتطير خصلة من شعرها الاسود وتحط على جبهتهـا فتردها بيدها وتعود لوراء كمـا كانت : كمـا لو كـانت الغصن يا اميرى يواجه نسمة .

بيديها بيديها .. آه بيديها ـ وقـد قامت ـ صففت الورد ورسمت اللوحـة بألوان وعطـر يا عقلى وغادرتنا « هكـذا سريعاً » وابتسمت وسلمت وابتسمت : كأنها قالت لى اهواك هكذا سريعا ، وهكذا سريعا غادرتنى ، وتلك الرائحة التـى خلفتها ما كان بمقدور الورد ان يفوح بمثلها ـ وهـل يجرؤ الورد .

ط البنى صديقى بالبقـاء وكنت راغبا فيه : لقد كانت هنا ، وقال لى من عمرى وانا محتاج للمال لأعيش .. أنا الاستاذ كنت ابغى التطوع بالجيش الذى سافر للحرب باليمن فمرتبات لجنـد هنـاك كانت عالية .. لكنى الآن افكـر فى الـزواج من تلك التى احبها ـ مع ان الفرصـة أتتنى الآن لاسـافر لليمن معلما براتب يفوق راتب جنديين الا انها لا تحب غير المدن ... وها انا كما تـرى حائـر بين حبـى ومستقبلى

ومستقلبى وحبى ، وسألنى ايهما الصحيح الزواج أم السفر؟ ها هو الفالح يطالبنى بالاجابة ، ولو قلت لـه (مستقبلك) لقال (حبى) ، وانا أعرف أنه يقصدها هـى ، دعـه فهـو لا يعلم ، ليكن يا اميرى للصديق على الصديق حق لا يعرفه الا الصديق ، من جانبى سأدمن الخمرة فهى كفيلة مع الايام أن تأتى بالنسيان ، نعم سأدمن الخمرة ـ ما الذى بقى ؟ .

فى البـار ـ بعد السنوات أتتنى أخباره : لقـد سـافر الى اليمن وتزوج من يمنيـة مـات زوجها اليمنى فى حـادث جـد مؤسف فورثت الارض الواسعة الجيـدة تزرعها بنـا ، بعـد زواجها الثانى لم تعـد تبيع البن أخضر ، فقـد اشار عليهـا صديقى بشراء محمصتين ومطحنين وكـذا مصنعـا لتعليب البن وقال لها : بمصر محامص كثيرة ومصانع لتعليب البن كثيرة معروضة للبيع بسعر قليل ـ وتلك فرصة لابـد أن تقتنص ، وافقت هى واشترطت أن لا ينزل هو بالفنـادق الكبرى فسمعة الفنادق الكبرى تعرفها هى من ام لها ماتت ، وقالت له من الافضل لنـا شراء بيت بالقاهرة لتكون القاهـرة لنـا مسكنا شتويا ويبقى اليمن مسكنا صيفيا ، وكـان هـو قـد تعود بفضل ذلك الشعور القديم بالفقـر أن يعمل بمـا تشير به زوجته الغنيـة التى اطلقت حوله العيون : من وقت يقلع بالطائرة من صنعاء الى ان يهبط بمطار القاهرة ... يقضى نهاره وبعضا من ليله بين المحامص والمطاحن ومصانع التعليب ويعود الى البيت ـ تتبعـه العيون ـ مهدودا فينام

(فى الحلم قابلها صدفة فلامته وقالت له : لقـد شغلت عنى بالمعال وبزوجتك الأرملة الغنية اليمنية ، فقفز من نومـه فزعـا لتكسر ساقه ، لكنـه أصر على السفر بساق مكسورة : قصد مطار صنعاء وحده وركب الطائرة المقلعة لمصر ، وبمصر بحث عنهـا ولمـا لم يجدها بحث عنى انـا الصديق المخلص مدمن الخمرة فوجدنى فى البـار)

ذلك ما قاله لى ...

(سافرت الى فرنسا لزيارة شقيقها المتزوج من فرنسيـة وهنـاك تزوجت من شقيق الفرنسية) وقلت له (هـذا كل علمى) .

وكل علمى بعد ذاك ـ يا اميرى :

ان الاستاذ عاد الى اليمن مغموما ، أدمن القات يمضغـه ويمصه ، حتى قالوا يا اميرى جن ، وفعلت اليمنية كل ما يمكن أن تفعله زوجة مخلصة : اتت له بالحكماء المعالجين من كـل بلاد الدنيا .. وبناء على تعاليمهم اشترت له طائرة هليوكبتر كانت تقودها بنفسهاـ هى المحبة ـ خوفا عليه ، وذات يوم غافلها ـ هو المدمن للقـات ـ وركب الطائرة وحمل معه خارطة ودليل فرنسا وكان يخفيهما فى ثنية سرواله ، وطـارت بـه الطائرة الى قدره وقدرها ، وكانت هى تطل من بلكون تشيـر

بيدها ذاى تلك الحدائق الفرنسية الشهيرة ـ فظن العاشــق المجنون مدمن القات انها تشير اليــه هو ، ولمــا لم يحسن الهبوط اصطدم جســم الطــائرة بافريــز البلكــون فا حترقت الطائرة واحترق هو واحترقت هى ٠٠٠٠

وها انا أيضــا ـ يا أميــرى ـ بالخمرة احترق ٠

حكاية أخيرة عن الطير الأليف والطير الجارح

امــام دار السينما ـ التى تعرض فيلما ملونا عن البنــات والبحر ، كانت طيور الهواء تجفف شعر البنت القادمة لتوهـا من البحر ،وكان الببغاء المحبوس داخل قفص كبير ملـــون معلقْ على باب السينما يردد : فيلم ملون ٠٠ البنات والبحـر فيلم ملون ، وكانت البنت الجميلة التــى تنتظـر صاحبتها الجميلة ـ تــدق بقدمها النشيطة الارض تدق الارض ليرتج الثدى ويبين الفخذ ويلطم الثوب الركبة ـ فيصرخ الببغاء ـ الذى يجهل حب البنت الحلوة لبنت حلوة : البنات والبحر ٠٠ فيلـم ملــون ٠

الولد ـ القادم من تحت الاشجار ـ وقف ، ورأى ٠

واليمامــة ـ التى ترى بعين سليمان النبى رأت ، وطـارت لتخبر سليمان النبى بما رأت ٠٠٠٠

والحمامة ـ من فوق برجها العالى ـ رأت ، وحضنت فرخها أمـا البــومة ـ فمن عجب انها لـم تهتم ٠٠٠

ونوارس البحر ـ لم يكن بمقدورها ان تحلق بالاعالى لترى والقواس الطائر ، مـر ، وما رمى بسهم العشق قلب البنت، ورمى بسهم العشق قلب الولد .

وانا الذى رأيت ـ تقدمت ، للبنت التى تبيع التذاكر ـ والتى تلبس ملابس الطاووس ، اريـد تذكرتين (تذكرة للولد القادم من تحت الاشجار وتذكرة لى) .

لكن البنت ـ التى تلبس ملابس الطاووس ـ صرخت كمـا يصرخ الببغـاء : الفيلم للبنات .. وعن البنات والبحر .

لـما رجعت انا الخائب ـ يا اميرى ، رأيت الولـد يدمى بمنقاره اجساد فتيات الاعلان ـ الطالعات والنازلات البحر ـ الواحدة تلو الواحدة .

هكذا يا اميرى فررت ـ **من مكـان العشـق على أرضـه مستحيل ، وانا أضرب الكف بالكف من اختلاط الأمور فـى هذا الزمان** ، ولسـان حالـى يقـول : **لا حـول ولا قـوة الا بالله .. وآه من زمان أعيشـه .**

بعد أن قرأت ..

« نزهة قصيرة فى صحبة قصاص »

لعل كثيرين ممن تابعوا يحى الطاهر يذكرون - فى مزيج من الأعجاب والحنين - قصصه الأولى التى قدمته لجمهور قرائه ، وأفسحت له مكانه المتميز بين أبناء جيله من القاصين . أعنى قصصا مثل « جبل الشاى الأخضر » ، « الجد حسن » ، « محبوب الشمس » ، « الدف والصندوق » ، « الرقصة المباحة » . كانت قطعا من فن القص جديرة بالاعجاب والافتقاد ، قدم فيها يحى رؤية خصبة لحياة الناس فى قرى الصعيد ومدنه الصغيرة ، أسرى يضطربون فى واقع قاس (ما أشد حرارة الشمس ووهجها فى تلك القصص !) تحكمه علاقات حديدية صارمة، محددة سلفا ، تنتظم طقوس الحياة اليومية حتى أدق تفاصيلها ، وهى محفورة فى وجدان الناس وعقولهم ، تجعل كلا منهم قيما على الالتزام بها لنفسه و للآخرين ، لون من « الثقافة » - بالمعنى الأنثروبولوجى للكلمة ، فى مجتمع محاصر ، منغلق - مثل « الطوق والأسورة » - على تقاليده وقيمه ، السيادة فى هذا العالم معقودة للرجل - ولكبار السن منزلة خاصة - والنساء حارسات لهذه السيادة ، لا يهم حضور الرجل الفيزيقى أو غيابه (بالرحيل أو الموت) ، لأنه حاضر دائما ، فهو « الأب الرمزى » - كما يعرفه المشتغلون بالتحليل النفسى - ، الجد الأول للقبيلة الذى كان يحوز الأرض والنساء ، وكان لابد أن يتمرد عليه أبناؤه ان شاؤا ان يحوزوا نصيبا

من عطاء الطبيعة والجسد ، لكنهم حين قتلوه والتهموه فقد تمثلوه ، انتقل من الخارج للداخل ، لم يعد موضوعا هناك لكنه فى مسرى الدم نفسه ، لذا فحين يقتل الأب يصبح الثأر ضرورة لا محيد عنها لتحقق الحياة ، وحين يتم تحقق الثأر « ينتهى السؤال والجواب والقيل والقال والقادم والفائت والمتعة والفرح والألم والعذاب والأم والأب والشعور والانتظار ٠٠ » (المهر) ، وفى هذا المجتمع المغلق ، صارم الحدود والمعالم ، فان العلاقات الأسرية تصبح البنية الأساسية التى تنظم العلاقات وتحدد الأدوار وفى الأسرة التى يقدمها يحى الطاهر اكثر من مرة – الأدق ان نقول انه يقدمها مرتين فى ثنائية « الدف والصندوق – المهر » ثم فى روايته القصيرة « الطوق والاسورة » ، – فان علاقة الأخ بالأخت هى أوضح العلاقات ، علاقة مريم وصالح فى الثنائية الأولى هى علاقة فهيمة ومصطفى فى الرواية ٠

فكل من الاختين تشتهى أخاها اشتهاء الأنثى للذكر ، والأم فى كل من العملين موجودة ، ساهرة – بروح الرجل – على حراسة التقاليد التى وضعوها حاضرين وغائبين ، وهى فى كل منهما كذلك تكتشف – كأنما فجأة – خطو الفتاة من الطفولة للأنوثة ، خروجها عن الامتداد الى المشابهة ، فتقع الجفوة ، لأن الصراع لابد أن يدور – لا شعوريا – حول الاستيلاء على الابن – الأخ – الذكر: «مريم صبية وحلوة،مريم من الأمس أنثى ، أنثى بحق ، وتأملت فى ملامح مريم –

مريم تشبهها ، وشعرت بالخجل لأنها حين أشارت لصدر مريم المبتل لم تلمح مولد فرخى يمام ، كانا قبل كلمتها مطمئنين على صدر مريم وهى أفزعتهما ، وتفيدة كانت صغيرة وتعرف بأى جناحين يضربان ، لقد صنعت تفيدة بفعلتها الحمقاء الجفوة التى تجعلها وابنتها لا تتواجهان منذ الأمس » (الدف والصندوق) ، وفهيمة بدورها تتشهى أخاها ، وتعترف فى مناجاتها للحبيب الغائب بأسرارها الصغيرة : « خرج للخلاء وقضى حاجته وعاد للدار ، وتسللت فهيمة متسترة بالليل ، وكان للبول المختلط بالتراب الجاف رائحة ثمرة جميز خضراء عطنة ، وحين تتذكر فهيمة مصطفى تنتشر فى الجو رائحة ثمر الجميز العطن ، وفى الستر كانت فهيمة تشم رائحة عرق مصطفى ورائحة وسخه بملابسه التى تلم جسده – قبل أن تغسلها ٠٠ » (الطوق والأسورة) ٠ انه عالم يصطخب بشهوات محاصرة ، متوثبة للتحقق ، لكن الواقع يعوق تحققها ، ويضع العقاب الصارم – الدمار أو ايقاع العقاب بالجسد موضوع الرغبة : (فنوال الصغيرة تلقى العقاب الجسدى الصارم فى جبل الشاى الأخضر ، وفهيمة تموت ونبوية تقتل فى الطوق والأسورة ، ومصرية تذهب لملاقاة مصيرها – صياغة جديدة لشفيقة ومتولى – فى « الثلاث ورقات » ، وامرأة الجمسى تقتل فى الوارث٠٠) ، وهو عالم تلعب فيه الأسطورة دورا هاما كجزء من الموروث فى المجتمع المغلق من جانب ، ومعادل انسانى لهذا

الواقع من جانب ثان ، وطبيعى أن يدور هذا الموروث فى صعيد مصر حول تيمات فرعونية واسلامية : ثمة أسطورة الأسود عارى الجسد مكشوف العورة فى معبد الكرنك ، كان يتفاخر برجولته فحوله الله الى حجر أسود : « تركوه مع النسوة ومضوا الى الحرب ، ودارت الحرب بينهم وبين عدوهم سنين طويلة ، وكان هو يرسل لهم الابناء وقود الحرب ، ولما تحقق لهم النصر نصبوه الها من دون الواحد الأحد ٠٠ » (الطوق والأسورة) ، وثم أسطورة الجنيات الثلاثة : « ثلاثة شقيقات ، يلبسن الأردية السوداء الطويلة التى تغطى الرأس والقدم ، يظهرن فى الظهيرة ، وقت تكون الشمس بوسط السماء ٠٠ ثلاث جنيات يمسكن بالرحى الكبيرة التى تدور ولا تتوقف قط : تطحن الكلاب والقطط الضالة فتكسر العظام في طقطقات عالية ويختلط الدم باللحم ، ويطفر الدم من اللحم ساخنا يضرب وجه الجنيات ، بينما عيونهن تقدح بالشرر ووجوههن تطفح بالشهوة الحمراء » (الطوق والأسورة) ، وتتردد نفس الأسطورة بتفاصيلها ودلالاتها فى قصة أخرى هى « المهر » ، تخايل صالح وهو لابد فى ظل النخلات الثلاثة ينتظر قاتل أبيه ـ الذى ضاجع أمه وتخلى عنها ـ ليحقق الثار ، انهن نذر الموت المرتبط بالتحقق الشهوى ، وفى « الجد حسن » أسطورة أخرى ذات طابع اسلامىّ عن « الخضر » الذى قد يأتى زائرا فى ثوب خرق متنكرا فى هيئة متسول ، والذى قد يختلط

به « المغربى » الجشع فلا يستطيع التفرقة بينهما سوى المؤمن المجرب ٠ وفى كل هذه الأعمال ثمة ممارسات ذات طابع طقسى لابد ان تحدث ، متعلقة بمظاهر الطبيعة ودورة الحياة ، خاصة الأخصاب والموت ، طرفى الدائرة ٠ فى تفاصيل منتقاه بعناية ودربة تمارس « حزينة » طقوس « فك الرباط » الذى يشل الحداد عن جسد ابنتها ، وبالتفاصيل ذاتها نشهد موت البشارى ثم موت فهيمة ، ونشهد طقوس احتجاب الشمس (محبوب الشمس) وهبوب الريح (العالية) وصيام رمضان (الجد حسن) وعودة الحاج (حج مبرور) ودوران الماكينة (طاحونة الشيخ موسى) ٠ انه عالم متناسق لا تتنافر عناصره : الواقع وتجاوزه ، الانسان والطبيعة ، الطقس والأسطورة ، الموت والاخصاب ، ويرف طير الموت بجانحيه الأسودين فى سماء هذا العالم ، يأتى بفعل الله أو فعل الانسان ، وفى رواية قصيرة مثل « الطوق والأسورة » نشهد موت البشارى وفهيمة واحتراق الحداد وامرأته الجديدة ، وموت شيخ القرية ووليها ، وتختتم الرواية القصيرة بذبح نبوية الجميلة والقاء رأسها الجميل فى جردل الماء الملىء بالنفايات ٠ وينهار العالم المحاصر فى الطوق والأسورة ، وتبقى حزينة وحدها بلا ضوء ولا نار ، بلا سمع ولا بصر ، بلا رفيق ولا أنيس ، حتى الارانب الكبير والصغيرة تترك البيت الخرب الى حيث الحشائش الغضة الخضراء ، تترك الموت الى الحياة ، وتفلح

هى فقط – فى كسر حصار الطوق والأسورة .

وقد عرفنا من كل ما سبق ان هذه الامكانية مستحيلة فى العالم الانسانى عند يحى الطاهر ، هو عالم يلتقى طرفاه فلا فكاك ، خطو الضوء فقط هو الذى يستطيع أن يدفع أمامه الخرافة والطقس والاسطورة وفقدان لتحقق) . هل كانت هذه الرواية ايذانا بانطلاق يحى الطاهر الى عوالم ارحب ؟ لقد استصفى هذا العالم ، وقدم رؤيته المتميزة للحياة على أرض الصعيد .

ولعل مما يلفت النظر فى أدبنا المصرى الحديث أن نصيب الصعيد : عراقة مصر وانقى صور الانسان فيها قليل فى هذا الأدب : اذا نحن قارناه بنصيب ريف الدلتا أو أحياء المدن الصغيرة والكبيرة ، ان هى الا أعمال قليلة ليحى حقى (بشكل خاص : البوسطجى ، الراعى والغجرية ، أبو فودة) وادوار الخراط (بشكل خاص : فى داخل السور ، الجرح القديم ، تحت البرج القديم) ، على اختلاف فى تناول كل من الكاتبين ، وميل الخراط لتصوير نموذج « القبطى » من الطبقة الوسطى ، فيما عدا هذه الأعمال لا نكاد نجد عند كاتب واحد ما نجده عند يحى الطاهر من صياغة متفردة لجوانب الحياة فى قرى الصعيد (الأدق ان نقول انها قرية واحدة هى الكرنك القديم ، قرية القصاص نفسه حيث يلتحم التاريخ القديم – ممثلا فى المعبد والطريق – بتخلف الحياة وفقر الواقع ورسوخ التقاليد . وحيث يبدو

السطح راكدا ركود مئات السنين ، لكن تياراته التحتية تدور دون توقف دورة الاخصاب والموت) .

على أن هذه لم تكن مرحلة تجاوزها الكاتب الى مرحلة تالية ، فعناصر هذه الثانية موجودة فى الأولى ذاتها ، ان فى ابداع هذا الكاتب « منظومات » من الاعمال لو صح التعبير ، تلك منظومة منها بلغت اوجها فى « الطوق والأسورة » ، وثمة منظومة اخرى حول « الرجل الصغير – فى – المدينة » قد تبلغ اوجها كذلك فى « أغنية العاشق ايليا » أو « فانتازيا العنف القبيح » ، هنا أيضا يمزج الكاتب عناصره الواقعية بغير الواقعية ، فتحقق بعض الأعمال شروط الواقعية دون أن تتجاوزها كثيرا ، وتنطلق الأخرى من بذور الواقع ليعود اليها الكاتب وقد أضاف اليها الحلم والهلاوس والذكريات والاحالة لعناصر الطبيعة فى كل واحد . من الأعمال الأولى أشير الى « (٣٥) البلتاجى ... » و « معطف من الجلد » و « أغنية العاشق ايليا .. » و « تلاوة ماسونية » ، ومن الأخرى أشير الى « شموس » ، « الى الشاطىء الآخر » ، « فانتازيا العنف القبيح .. » ، والبطل – فى هذه الأعمال على وجه العموم – صغير مسحوق ، ضائع بين الجدران والأبنية واللوائح والقوانين ، هو مطارد – فى « معطف من الجلد » ، أو ينوء تحت ثقل مسؤوليات حياته اليومية بحيث يعجز عن أيواء صديقه المطارد رغم رغبته فى ذلك

« القصة نفسها » ، أو هو مربوط بسلسلة البند الحكومى « (٣٥) البلتاجى ٠٠٠ ، قابيل الساعة الثانية ، الثلاث ورقات » ، صغير ضائع فى المدينة ، يعرف مقاميها وحاناتها ، ويلتمسها للخلاص ولاخلاص ، كلهم يتحدث بلسان واحد منهم فى «شموس » : «٠٠٠ تنقطع عنى المياه وأنا استحم ـ ربما بسبب هؤلاء، وربما لأنى ، وان كنت أجزم ، آه ، لا اذكر ، هل ارتكبت ذنبا ؟ لم تغمز لى لمبات الشارع ؟ لم يطاردنى بشر ينظرون الى ساعاتهم فور دخولى أى مكان ؟ (يضربونه دائما بالكتف من غير سبب ، ويتخطاه الاتوبيس المسرع ولا يقف الا وهو مزدحم ، يعامله الكل ـ الباعة والمارة والصحاب ـ تلك المعاملة التى لا تليق بكلب ، تطارده الوساوس ، ولا يقف له التاكسى ، حواليه دوما عربات : عربات اسعاف وعربات شرطة وعربات جيش وعربات صحافة وعربات القطاع الخاص والعام ٠٠ انه ـ فى عبارة واحدة يقولها أحمد لنفسه فى « تلاوة ما سونية » : لا يملك ان يدفع عن نفسه الشعور الواقعى الذى يداهمه بأنه مهان ٠ هذا الرجل الصغير يتوق الى الحب ، فحين يحب يتفتح الربيع ويورق الشجر وتخضر الحشائش ، وتطلب طيور الربيع الماء وتغتسل . أما حين لا يتحقق الرجل الصغير فى الحب يصبح الربيع خريفا ، يسقط ورق الشجر ، تيبس الحشائش ، تغطى الأوراق المتساقطة نبع الماء ٠٠ (انا وهى وزهور العالم) ، هذا الافتقاد للتحقق فى الحب يعادل الدمار الذى يرتبط بالتحقق فى قصص المنظومة الأولى ، وامامه ايضا تغلق كل

نوافذ الخلاص : الخمر وحلم النوم وحلم اليقظة ، ولا مهرب : « أنا جد مخمور وصديقى تركنى وحدى وأنا جد حزين ، انا هالك سيدتى ٠٠ الطريق بعيدة والسير اتعب اقدامى ٠٠ يا لطرقات تلك المدينة ذات القباب، يالى من تعس ، يالى من فاشل بأكفان بيضاء ٠٠٠ هذا يوم بخمسين ألف سنة ، والأمس كان كذلك ، وغدا سيدتى سأعرج وحدى ـ انا العاشق ـ عاجزا عن الفعل ٠ مؤمن كطبعى ـ بالكلمات ٠٠ » (الى الشاطئ الآخر) ٠ وابدا لا يتحقق الرجل الصغير فى علاقة الحب ، انه مسحوق من الخارج ، متقد رغبة فى التوجه نحو موضوع حبه فى الداخل ، لكن هذا العالم الذى تحدد كل شئ فيه ـ يرفض قلبه الصغير الذى ينوشه ألم الوحدة والضياع حتى الارتجاف ، ويتخايل الموت خلاصا وحيدا فى هذا العالم ، نقطة ضوء شاحبة فى نهاية سرداب طويل معتم (فانتازيا العنف القبيح) ٠

يقول الراوى لأميره فى السطر الاول من حكايته الأولى : « الحمد لله الذى لم يسلبنى كل نعمة فوهبنى نعمة الخيال » ، وهذا شئ جدير بأن يحمده الراوى حقا ، فانطلاقة الخيال مدخلنا لفهم المنظومة الثالثة من اعمال يحى الطاهر ، وتضم « الحقائق القديمة صالحة لاثارة الدهشة » و « حكايات للامير » ، نحن هنا نرى الخيال ينطلق انطلاقة حرة محلقة ، فيخلق عالما خاصا لا يشتبه بغيره ، عالم له ثوابته ومتغيراته ، يبدأ بعناصر واقعية

يجهد الكاتب البارع لاخفائها كي يضفي على ابداعه مسحة أسطورية خيالية خالصة ، غير ان هذه العناصر تفاجئنا لتشير الى بدايات الرحلة الاسطورية من جانب ، وموقف الكاتب من الواقع الموازى الذى تبدعه الاسطورة من جانب ثان • فى « الحقائق القديمة » نرى اسكافى المودة فى سبع لحظات ، والثوابت فى عالمه محددة ومتواترة : ثمة السوق الذى يعمل فيه الاسكافى ، وخمارة مخالى حيث يقضى وقته ويلتقى بصحابه ويمارس كل حيل « المكدين » كى يظفر بثمن شرابه ، وثمة رحلة العودة مخمورا الى داره حيث تنتظره ـ أو بالأحرى لا تنتظره ـ امرأته مقطوعة الثديين التى يموت كل ابنائها الذكور ، وثم ايضا الدركى الذى سيلتقى حتما بالمخمور فى رحلة العودة ، وسيقتاده مرة الى المخفر يقضى به اياما لأنه جرؤ مرة ورفع عقيرته بالغناء مقلقا راحة النائمين ، وهو الدركى الساهر لا تفوته الفائتة ، وفى هذا العالم ايضا يتحول الانسان الى شىء او حيوان ، ويستطيع ان ينتزع لسانه أو يربطه عقدة فأكثر ، ويتخلص من الدركى المطارد بأن ينتزع اعضاءه عضوا بعد الاخر ويلقى بها اليه فتلهيه عن الطراد • أما ان صفت الدنيا وصالحت خصومها ابناء الله المحرومين ، وان شعشعت فى الرأس والقلب نشوة الخمر تحدث الصحاب عن دنيا السوق : « ما الذى أفسد دنيا السوق ؟ كأننا نسعى بخطوات سريعة نحو الاخرة •• الغلاء الازرق بيننا يحجل •• والغلاء الأسود فى وجهنا ينبح •• والغلاء الأبيض كاره يمسك المنجل بيده ـ بينما الاخلاق تسوء والشجار

يومى والعربات تأتى للسوق تجرها البغال الغبية لتأخذ الخضار والفاكهة ••• البوابون سادة بملابس بيضاء ، والقوادون يتاجرون فى بنات الناس امام عيون الكل ••• وفى الغرف المفروشة أولاد عرب مثلنا لكنهم سعداء يتكلمون الكويتية والليبية والسعودية ويلتهمون اللحوم مشوية ومقلية وطازجة من عجيزة غلام ويطيبون رائحة افواهم بشراب الويسكى والنقل المقشر وينامون حتى مع عجائز الغسالات •• » ، وان صفت الدنيا وصالحت خصومها ابناء الله المحرومين ، وان شعشعت فى الرأس والقلب نشوة الخمر استبدت باسكافينا الصغير رغبة فى البوح والافضاء : « على الآدمى منا ان يترفق بصاحبه الآدمى الطاحونه يا سيدى بحجر ثقيل ••• لقد عشت حياة القرد المكشوف العورة •• طعامى تافة ورخيص بلا طعم •• مابل العطر جلدى قط وهذا ثوبى والشتاء بأسنان •• كان الحكم ان اموت الا انى دافعت عن نفسى بقدر ما استطعت •• واجهت الموت مرارا وكنت اقول : انا نخلة بثمر وتلك ريح •• انحنى لها يا اسكافى المودة •• انحنى ودعها تمر •• » نعم • وماذا يملك الرجل الصغير فى مدينة كتاك سوى ان ينحنى للريح ؟ ، لكن اسكافى المودة يعرف الكثير مما يحدث فى السوق وما يفعله السماسرة والوسطاء والمضاربون والمزايدون واللصوص الكبار والصغار وتجار الأجساد ومهربو السلع ، ومرة اشرقت الحقيقة فى رأسه مثل ألق شمس الصعيد : لا سبيل للاسكافى وامثاله الا ان يضموا القبضات ويشهروا المسدسات • ذلك السبيل ولا سبيل

سواه ٠ « الحقائق القديمة » انطلاقة جديدة فى قصص الرجل السنير لتتحرك ترتفع بهمومه لأفق أعمق وأرحب ، يستميد فيها القاص من وأعه القديم الدائم بتحديد العلاقات والتفاصيل ، لكنه يصفيها ويلخصها فيرفعها ويرتفع معها٠

بقيت كلمات قليلة حول تلك الحكايات التى فرغت من قراءتها ، وانني اعتقد ان الكاتب قد بلغ فى هذه الحكايات الأربعة عشرة مستوى لم يحققه قبلا من حيث تنويع وسائله فى القص ، والاستفادة من المأثور الشعبى للراوى القوال (الحكواتى) فيكرر الفاظا بعينها تقوم مقام الرقى والتعاويز ، والتوجه الى الله بالثناء على الخاتمة الحسنة ، والتوجه بالحديث الى جمهور المتلقين ٠٠ اميرا كان او جماعة ، واستخدام الحكاية داخل الحكاية والاسماء ذات الدلالة وتعمد البساطة الظاهرية فى سوق الاحداث الهامة والخطيرة ، والاحالة الدائمة لعناصر الطبيعة وتوظيفها فى الوصف أو الكشف عن مشاعر الشخوص ، والاستفادة من معرفة تفاصيل الحياة فى قرى الصعيد ومدنه الصغيرة ، واللجوء الى ضرب الامثولة والحكاية ذات المغزى (Fables) والاحالة كذلك الى الخبرة الشعبية والمثل السائر ٠٠ كل هذا فى صياغات اتقنها الكاتب جيدا وتحققت فى اعماله من قبل ، خاصة ما يتعلق باقتصاد اللغة ودقتها من غير رخاوة أو ترهل او اطناب ٠ ومن الناحية الأخرى فان هموم الكاتب فى حكاياته هذه هى التى عرفناها على وجه العموم ، لكن ما هو جدير بالاشارة هو

تقدم هذا الهم الجديد وهو تصوير محاولات تحقيق الصعود الفردى عن طريق تسلق الجدار للفاصل بين الاغنياء والفقراء (حكاية الريفية – حكاية بزخارف) او العمل فى خدمة المستعمر ثم السادة الجدد (حكاية عبد الحليم افندى) ٠ او العمل على احتكار السوق بضرب المنافسين (من يعلق الجرس) ، لكن الدمار يصيب هؤلاء جميعا : الريفية ذات الأصول الفقيرة عاشت محصورة داخل عالم يضمها هى وزوجها فقط ، لانهما رفضا الانتماء للفقراء فينبذهما الاغنياء وكان حتما الا يتحقق بينهما اى اثمار ٠٠ وكيف اثمار لروحين خائفين مرتعدين انكرتا انتماءهما الحقيقى ؟٠ وعباس بطل الزخارف نال جزاءه العادل بأن دخل المخفر – ومن بعده دار الاصلاح – متهما بالسرقة لا بالعشق وعبد الحليم افندى تسقط اقنعته كلها فى لحظة واحدة ويرتد اميا عاجزا عن قراءة سطور فى خطاب (هل يريد القاص ان يقول لنا ان ما عجز عنه هذا الخادم الذى حقق النجاح الذى يصبو اليه هو قراءة الواقع أى ادراك قوانين حركته الأساسية ؟) ، كذلك فان الشيخ صابر الذى أصبح كبير التجار فى السوق ونجح فى القضاء على منافسيه لم يعد له الا ان يحدث نفسه : « ملك السمك الحى والسمك المملح – عجوز ، خالق الزحمة بالأسواق – وحيد ، مالى يحرك القارب والصياد والحوذى والحمال والعربة والبغل والحمار وريشة الرسام – وانا جامد ٠٠ » ثم يأتى الموت البارد فيضع النهاية ، ويروح القاص يقتنص لنا – ولأميره – من حياته الثمرة الحلوة

والمرة . وهو كذلك ينتقي من « ألف ليلة وليلة » عناصر ينطلق بها ويمزجها بعناصر من عالمه هو فى كل واحد متساوق (حكاية أم دليلة ـ هكذا تكلم الفران) ، وحقق فى الثانية من الحكايتين هذا الحلم الشعبى فى مائدة وهمية لا تنتهى صنوفها ، ولا ينسى يحى الطاهر عالم الصعيد ، فيقص منه ثلاثة حكايات ، لكن الجديد هنا هو انه يصحب واحدا منه نعيش معه حياة الصعيدى الفقير فى المدينة ، حتى تزل قدمه فيهوى من حالق لانه جرؤ لحظة على الحلم ، وهو لا ينسى كذلك عالمه الاسطورى فيصوغ منه حكايتين (حكاية برأس وذيل ـ قفص لكل الطيور) ، وأخيرا يتابع هما شديد الحداثة والمعاصرة ، فيرصد فى « حكاية ميلودرامية » عدة اجيال من عائلة قبطية مصرية حتى انتهى اخر الأحياء منها الى الضياع ، وتحول بيته ومتجر اسرته من قبل الى « بوتيك ميامى » .. مع « عصر الانفتاح على طريق العلم والايمان تحت صورة بطل يوليو ومايو واكتوبر وبقية شهور السنة » ..

ولن تنتهى حكايات الأمير

* * *

يحى الطاهر عبد الله اخلص العشق للقصة القصيرة ، فبادلته عشقه طواعية وقابلية للتنوع : ثمارا مختلفة الطعوم والشكول ..

ولم تكن كل الكلمات السابقة سوى نزهة قصيرة فى بستان قصصه .

فاروق عبد القادر

الفهـرس

تنويــه للقــارىء :

تأجل طبع الكراسة الثالثة « مسرح الشــارع فى امريكا لعــذر غير فنى ، ونرجو ان تصدر قريبا !

* * *

فى الكراســة القادمة :

« ازدهار وسقوط المسرح المصرى »

بقلم فاروق عبد القادر

رقم الايداع ٥٠٦٣ ,

كراسات الفكر المعاصر

* هذا شاعر فى القصة القصيرة . يمتاز باقتصاد العبارة ودقة اللفظ وانطلاقة الخيال . وهو الى هذا — قادر على خلق عالم خاص لا يشتبه مع غيره . هكذا كان يحى الطاهر فى مجموعاته الثلاث السابقة : « ثلاث أشجار كبيره تثمر برتقالا » و « الدف والصندوق » و « أنا وهى وزهور العالم » . وهو كذلك فى هذه المجموعة .

أن يحى الطاهر واحد من أنضج قصاصى هذا الجيل . و « حكايات الأمير » واحدة من أنضج مجموعاته .

دار الفكر المعاصر